إلى القارئ

كثيرا ما تعرضنا في افتتاحياتنا الى شؤون الثقافة بهذه البلاد وعبرنا عن رأينا فيما رصد من طاقات وهيىء من أسباب وما يحسن ـ في نظرنا ـ توفيره واعداده كي تزدهر الحركة الثقافية وتهب ريح التأليف ويسطع نجم الأدب والفكر في ديارنا .

واذا ما توجهنا بانظارنا اليوم الى ما ينجز في داخل الجمهورية لاحظنا بكل ارتياح أن النشاط الثقافي متزايد والعناية بالتراث الفكري واحيائه مطردة الازدياد

فهذه اللجان الثقافية تبعث في كامل الولايات فتلقى المحاضرات وتمثل المسرحيات وتؤسس نوادي السينما ويشتد ولوع الشباب بالموسيقى الاصيلة المهذبة ، وتقام المتاحف للمحافظة على ما تكتشفه كل جهة من كنوز أثرية والجمع ملامح الشخصية الثقافية الجهوية من فلكلور وازياء وعادات وكل ما يعبر عن الروح الشعبية الباقية المتطورة في آن واحد

وهذه جهود الولاة والبلديات تتضاعف فيؤمن الجميع بان تأسيس دور الشعب ودور الشباب والنوادي والمتاحف والملاعب لا يقل أهمية عن تعبيد الطرقات وانارة الشوارع وتسييج المقابر وبناء المقاهي .

والى جانب ذلك تنظم المهرجانات وحلقات الدرس والملتقيات والتربصات فيجتمع الشباب ويتعارفون ويشاركون في شتى المسابقات والمباريات سواء في الشعر او التمثيل او الرسم او الشطرنج او الرياضة البدنية فيكتملون بذلك ما لقنوه بالمدرسة فتتهذب أذواقهم وتتفتح آفاقهم وتزكى مداركهم فيصبحون أقدر على الخلق الادبي والانتاج الثقافي وأسبق الى العمل الصالح الايجابي .

وان هذه الحيوية وهذا النشاط والوعي الجديد بالحاجة الى الثقافة ليست بالامر الغريب ، اذ النهضة بالبشر التي هي غاية تونس وهدف المسؤولين بهذه البلاد وشعار مخططنا لا تقتصر على الهيكل الاساسي وسد الرمق فقط بل تستوجب الرفع من شأن الانسان التونسي وتمكينه من ممارسة انسانيته والسمو به الى أعلى مراتب الرفعة المعنوية .

فالمتتبع للحركة الثقافية بتونس يجب عليه ان يتجاوز العاصمة ويتطلع الى معالم الحيوية التي تنمو يوما بعد يوم في كامل جهات الجمهورية ولعله يتفاءل خيرا بعد ذلك بمستقبل ثقافتنا القومية اذ لا ثقافة ولا نهضة ولا تقدم الا اذا توازت الجهود في القمة والقاعدة معا ثم تركزت المجهودات على الشعب وسعت الى رفع مستواه وبالتالي اذا ساعدت على ايجاد هذا الحوار المتواصل بين النخبة وسواد الشعب في مستوى الفكر ، على نحو ما توفر في ميدان السياسة فكانت الثمار الشهية التي لا ينكرها الا معاند او جاهل بالواقع التونسي .

الفكر

بعد المؤامرة

شعر : محمد الهاشمي زين العابدين

تَزِيدُكَ هزَّاتُ الزَّمَانِ مَقَامَا ... وَيَزْدَادُ هَذَا الشَّعْبُ فِيكَ هُيَامَا
وَتُنْجِيكَ مِنْ كَيْدِ الحَسُودِ سَرِيرَةٌ ... إِذَا اكْتُنِهَتْ كَانَتْ عَلَيْهِ غَرَامَا
وَيَسْتَرْجِعُ الرُّشْدَ المُغَرَّرُ لَوْ رَأَى ... مِنَ الهَوْلِ هَاتِيكَ الدِّمَاءَ سِجَامَا
وَشَعْبًا تَعَادَى أَهْلُهُ بَعْدَ وِحْدَةٍ ... يُعَانِي البَلَايَا النَّازِلَاتِ جِسَامَا
وَطَوْدًا تَدَاعَى بَعْدَ مَاشِدْتَ صَرْحَهُ ... وَأَمْسَى الذِي أَعْلَيْتَ مِنْهُ حُطَامَا
فَيَشْتَدَّ بِالشَّعْبِ الرَّشِيدِ تَعَلُّقٌ ... بِشَخْصِكَ إِنْ خَانَ اللَّئِيمُ ذِمَامَا
وَيَنْصُرُكَ النَّصْرُ الذِي أَنْتَ أَهْلُهُ ... وَيُصْلِتُهُ فِي نَاظِرَيْهِ حُسَامَا
وَيُصْفِيكَهَا عِنْدَ المُلِمَّةِ غَمْرَةً ... مِنَ الوَجْدِ تُصْفِيكَ القُلُوبَ دَوَامَا
لانَّ الَّذِي قَدَّمْتَ مَا كَانَ تَافِهًا ... وَلَا هَيِّنًا حَتَّى يُبِيحَ خِصَامَا
وَلَكِنَّهُ العِزُّ الذِي يَنْفَحُ المَضَا ... وَيَرْفَعُ بِالحَقِّ المُبَلَّجِ هَامَا
وَيَفْرِضُ آيَاتِ احْتِرَامٍ وَمَنْعَةٍ ... وَيَكْشِفُ عَنْ وَجْهِ الفَلَاحِ لِثَامَا
بَذَلْتَ لَهُ العُمْرَ الطَّوِيلَ مُغَالِبًا ... كَوَارِثَ جُلَّى تَكْفَهِرُّ ظَلَامَا
مَنَافٍ وَتَشْرِيدٌ وَقَهْرٌ وَنُعْرَةٌ ... مِنَ الغَيِّ تَطْغَى أَوْ نَعِيشَ رِغَامَا
تُجَابِهُهَا نَفْسُ الحَبِيبِ كَبِيرَةً ... وَتُسْلِسُ مِنْهَا لِلرَّشَادِ زِمَامَا
لِيَبْلُغَ هَذَا الشَّعْبُ مَاجَلَّ مِنْ مُنًى ... تَسِيرُ بِهِ نَهْجَ الرُّقِيِّ أَمَامَا
وَيَسْرِي إِشْعَاعُ الكَرَامَةِ فِي الوَرَى ... يُضِيءُ بِقَلْبِ المُلْهَمِينَ أَنَامَا
مِنَ البِيضِ وَالسُّودَانِ وَالسُّمْرِ فَانْبَرُوا ... لِغَاصِبِهِمْ فِي العَالَمِينَ سِهَامَا
لِيَسْتَنْشِقُوا رِيحَ التَّحَرُّرِ وَالعُلَى ... وَيَسْتَبِقُوا غُنْمَ الحَيَاةِ كِرَامَا
لانَّكَ سَبَّاقٌ لِبَذْلِ مَعُونَةٍ ... لِحُرٍّ وَلَوْ أَبْدَى الصَّدِيقُ مَلَامَا
وَدَيْدَنُكَ الانْسَانَ تَرْفَعُ شَأْنَهُ ... وَتُنْزِلُهُ مَا يَسْتَحِقُّ مَقَامَا

تَصَرَّفْتَ فِي الدَّهْرِ الذِي قُدْتَ فُلْكَهُ   وَسَيَّرْتَهُ نَحْوَ المُرَادِ هُمَامَا
كَشَأْنِكَ لَمَّا حَانَ تَطْهِيرُ أَرْضِنَا   جَعَلْتَ مِنَ العِشْرِينَ تُصْبِحُ عَامَا
فَأَعْجِبْ بِمَوْلُودٍ جَرَى قَبْلَ شَهْرِهِ   تُقَلِّدُهُ قَبْلَ الفِطَامِ وِسَامَا
وَأَكْبِرْ بِهِ يَطْوِي المَرَاحِلَ غَازِيًا   وَأَعْظِمْ بِهِ يَهْدِي الشُّعُوبَ غُلَامَا
وَأَعْظِمْ بِشَعْبٍ لَمْ يَزُغْ قَطُّ عَنْ هُدًى
          وَلَا نَالَتِ الأَحْقَادُ مِنْهُ مَرَامَا
وَلَا غَرَّهُ سَاعٍ بِمَوْهُونِ حُجَّةٍ   عَلَى حَذَرٍ يُذْكِي الفَتِيلَ ضِرَامَا
وَيَرْفِدُ طَوْرًا بِابْتِسَامٍ وَهِزَّةٍ   وَيَتَّخِذُ المَكْرَ المُسِيءَ إِمَامَا
فَعَهْدِي وَعَهْدُ الشَّعْبِ دِينٌ مُنَزَّهٌ   يَبِينُ عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ عِصَامَا

❀ ❀ ❀

يُوَافِيكَ عِيدٌ وَهْوَ عِزَّةُ أُمَّةٍ   تُبَاهِي بِهَا هَذِي الشُّعُوبَ تَمَامَا
فَأَنْتَ الَّذِي لَمَّا مَسَكْتَ زِمَامَهَا   وَعَالَجْتَهَا كَيْ تَسْتَقِيمَ نِظَامَا
وَأَلْفَيْتَ أَنَّ البَوْنَ مَازَالَ شَاسِعًا   لِتُدْرِكَ غَايَاتٍ لَهَا تَتَرَامَى
رَوَاسِبُ بَلْوَاهَا قَوَاتِلُ وَعْيِهَا   كَوَابِحُ أَشْوَاقٍ لَهَا تَتَسَامَى
رَصَدْتَ لَهَا الفِكْرَ الحَصِيفَ مُجَلِّيًا   غَيَاهِبَ أَحْقَابٍ نَشَرْنَ غَمَامَا
بِمُحْكَمِ تَخْطِيطٍ وَأَقْوَمِ مَنْهَجٍ   يُتِيحُ لِشَعْبٍ يَشْرَئِبُّ سَلَامَا
وَعَيْشًا سَعِيدًا فِي الكَرَامَةِ وَالإِبَا   تَمَلَّى بِهِ طِيبَ الحَيَاةِ طَعَامَا
فَوَاصِلْ فَهَذَا الشَّعْبُ حَوْلَكَ كُلُّهُ   وَوَاكِبْ سَبِيلَ الرُّشْدِ عَوْضُ أَمَامَا

محمد الهاشمي زين العابدين

(1) أبَـدا

الديمقراطية والاشتراكية

بقلم : الدكتور عبد المجيد رزق الله

ذكرنا في المقال السابق (1) أن فكرة الديمقراطية تطورت ابتداء من القرن التاسع عشر من الديمقراطية السياسية أي "حكم الشعب بواسطة الشعب" الى الديمقراطية الاقتصادية والاجتماعية أي "حكم الشعب لفائدة الشعب"

فأصبحت اليوم حقيقة الديمقراطية أنها "حكم الشعب بالشعب للشعب".

وقلنا أيضا أنه أصبح من أهم غايات أولي الامر في الحكم تحقيق العدالة المدنية والاجتماعية في آن واحد. وهذه أهم مميزات الحكم في العصر الحديث. ومن أحدث ما أطلق من تعريفات للسياسة هي أنّها فنّ رفع مستوى المواطن.

ونريد اليوم العودة الى الموضوع لنحاول شرحه وتطوراته وتحليل محتوياته متعرضين الى تجربتنا التونسية التي شرعنا فيها منذ الاستقلال وارجاع السيادة الى الشعب لتقرير مصيره بنفسه ولبناء مستقبله على أساس الحرية والكرامة والازدهار.

* * *

يقول الاستاذ محمد مزالي في مقدمة كتابة عن الديمقراطية :(2)

"... فالخطر كل الخطر أن يقنع الشعب بالكلمات دون الحقائق ويستغني بالمظهر عن اللب. الخطر الذي يهدد الامة الفتية هو اعتبار هذه المنشآت الحديثة كالبرلمان والوزارة المنسجمة والاستقلال... غاية تطلب في حدّ ذاتها وتقصد لنفسها والتغني بها دون ما كان مفروضا أن توفره للشعب من سعادة حق ورفاهية كاملة وازدهار شامل.

الخطر الذي يهدد الامم الفتية — وخاصة ما كان مستعمرا منها — هو اعتبار الاستقلال والبرلمان وغيرهما مما هو موجود في الدول الكبيرة...حلية يتباهى بها المواطنون كما تتباهى النساء الجاهلات بحليهن في المحافل.

ان الدساتير والانتخابات والوزارات وشتى الدواوين الحكومية —

(1) راجع الفكر العدد 5 فيفري 1963
(2) في مجموعة "كتاب البعث"

ان هي لم تعتبر وسيلة ـ لاتعني الشعوب اذ ليست هي عصا سحرية تقلب الحجر ذهبا وتحول الجهل نورا والجوع شبعا والشقاء سعادة ونعيما.

واذا صح أن العاقل من اتعظ بغيره فواجب علينا أن ننظر الى تاريخ الامم ونستخلص منه العبر. فالشرق العربي مثلا أصيب باستعمار بغيض مثلما أصبحنا نحن وقد ضحى التضحيات الجسام في سبيل استقلاله وفي سبيل التمتع بشيء يسمى برلمانا وبشيء يسمـى انتخابا وبشيء دستورا... حتى اذا كان له جانب من ذلك حمد الله على نعمتـه واعتبر نفسه قد أصاب الهدف وحقق الامل وهو اليوم يدرك في شيء من المرارة والالم أن مرحلة أخرى كبيرة في طريق السعادة الحق يجب عليـه اجتيازها.

بذلك يشهد ما يقع في تلك الرقعة من الارض من احداث وحوادث في هذه السنوات العشر الاخيرة وما نطالعه من مؤلفات المفكرين الاصيليين في مصر امثال طه حسين وخالد محمد خالد ولبنان حيث لا يحصى لما ينشر عدد

والذى نستنتجـه من كل ما تقدم ونأمل أن يعيه مواطنونا كامل الوعي هو أن الاستقلال وما سيتبعه من وزارة منسجمة وانتخابات ودستور... انما هو وسيلة الى تحقيق الديمقراطية الحقيقية بأتم معناها وأشمل قيمها وباعتبارها النظام الوحيد الذي يوفر السعادة المادية والمعنوية للجماعات البشرية....»

هناك مسألة تشغل بال المفكرين منذ أقدم العصور وهي مسألة ضبط العلاقات التي يجب أن تربط بين الفرد والمجتمع وتحدد حقوقه وواجباته وخاصة توفق بينها.

وكان أرسطو الفيلسوف اليوناني أول مفكر عني بالديمقراطية وذلك في كتابـه "في السياسة". ومما لا شك فيـه أنه يعتبر الديمقراطية "حكومة الشعب بالشعب وللشعب" كما يقال اليوم الا أن الشعب عنده "جماعة" أو "مجموع أفراد" يتصف بصفة العدد المواطنين. الا أن هذا الحكم لا يمكن أن يؤول في نظر ارسطو الى عموم المواطنين.. بل الى "نخبة منهم" متصفة بحصافة الرأي وسموّ المدارك ونبل المقاصد...

وهذا الاعتبار هو الذي أصبح حجر الزاوية لعامة ما يوجه الى الديمقراطية من انتقادات : فهي في نظر بعضهم كما يقول عطا بكـري : "حكم العوام الذين هم عديمو الكفاءة والقابليـة لادارة دولاب الحكم بتعقل وسداد رأي إذ أنهم ليسوا قادرين على معرفة الآراء السديدة حيث أن الجمود دينهم

وعدم القابلية لتفهم الافكار الجديدة شأنهم وصفتهم. أما العمل السديد والحكم الرشيد والسير نحو التقدم فانها من خصائص النخبة المختارة التي لولاها لبقيت البشرية ساكنة في المغاور والكهوف...»

الا أننا لو سلّمنا بذلك الرأى بدون محاولة ـ والسياسة محاولة ـ وبدون توافق ـ والسياسة توافق أيضا ـ وبدون تربية المواطن ـ لآل بنا الامر الى الديكتاتورية أو الفاشية التي تأباهاعواطف الانسان ويأباها عقل الانسان على السواء

وكما يقول الاستاذ محمد مزالي في كتابه عن الديمقراطية الذى ذكرناه آنفا :

«الفاشيسم يبحث عن «المعرفة» عن طريق الوحي والحدس الصوفي فلا يظفر بها الا النخبة الاسياد. أما الديمقراطية فهي تعتمد العقل لانها تعتبره قدرا مشتركا بين جميع الناس على حدّ السواء وانما ينمو عند البعض ولاينشط عند البعض الآخرين لتفاوت في ظروف النشأة ووسائل العيش التي هي قابلة للتعديل والتغيير والتطور على كل حال.

الفاشيسم يقدس الدولة ويعتبرها غاية في حدّ ذاتها ـ بينما الديمقراطية لاتقدس الدولة بل تعتبرها وسيلة لخدمة الفرد وتوفير أسباب السعادة الحقيقية لـــــه.

الفاشيسم يخدم نفرا من البشر والديمقراطية عاملة في سبيل البشر أجمعين»

❀ ● ❀

ذكرنا في الحديث السابق عن تطور المفاهيم الاساسية للسياسة والحكم ان اليونان كانوا اول من عملوا بمبدأ الديمقراطية. ولكنهم في الواقع كانوا لا يطبقونهاالا على أقلية منهم حيث أن اكثرهم كان محروما منها كالعبيد والنساء وغيرهم من الافراد الذين لايطبقون عليها صفة المواطنية.

وذكرنا أيضا أن الاديان السماوية هي التي سوّت بين الناس جميعا. والدين الاسلامي سار خطوة شاسعة في تحرير الافراد والجماعات «فجعل الرق كفارة لشتى الخطايا تفريجا له وتكريها فيه ... وقال : «ان أكرمكم عند الله اتقاكم». وجعل للفقير حظا من مال الغني...». والدين الاسلامي جعل الحكم شُورى بين المسلمين عملا بقوله تعالى «وأمركم شورى بينكم». الا أن الواقع يثبت أن فكرة المواطنية وفكرة الديمقراطنية في الاسلام مع ما فيه من

مبادىء أخلاقية سامية لاتنكرليست المواطنة والديمقراطية التي نفهمها اليوم بما تقتضيه من حقوق وواجبات.

ان فكرة المساواة في الحقوق والواجبات فكرة حديثة. وأن الديمقراطية ظاهرة جديدة رغم ما قيل عنها في سالف العصور.

وقد تطورت بسبب تطور علاقات البشر بعضهم مع بعض. فكان النظام العائلي ثم النظام القبلي وكان عهد الرقيق وكان عهد الاقطاع...

وابتداء من القرن الثامن عشر وخاصة خلال القرن التاسع عشر لوحظ تطور جديد واسع النطاق عميق الجذور في الحياة الاجتماعية.

فسادت الطبقة البورجوازية. ونشأت شيئا فشيئا الديمقراطية السياسية. وقام مجتمع يتمتع كل فرد فيه بحقوق وامتيازات يتساوى عندها الجميع دون اعتبار للمرتبة أو للمؤهلات أو للممتلكات أو للمعتقدات. كما لافرق فيه بين العناصر والاجناس أو لاصحاب العلم أو الثراء أو بين المنحدرين من أصلاب تتفاوت أنسابها طيبا وخبثا. كل الناس أمام الديمقراطية سواسية متساوون في الحقوق وفي الاستمتاع برعاية الدولة والشعب الواجبة نحوهم.

الا أن قطار التاريخ لم يوقف سيره بل واصله الى أبعد من ذلك. وصورة ذلك أن البورجوازية اضطرت بعد ثورات دامية أحيانا وبعد اقتناع أحيانا اخرى أن تقرأ حساب عمال المصانع الذين مكنوها من جمع الثروة بعرق جبينهم وكذلك حساب بقية المواطنين الآخرين من باب التضامن والعدالة الاجتماعية وكان فجر الاشتراكية على يد روادها الاولين أمثال "أون" و"فوريي" و"سان سيمون". وقد تخيل هؤلاء المفكرون اشتراكية مثالية تتساوى فيها الاجور ويقع فيها إعادة النظر من جديد في المجتمعات العاملة. وكانت الاشتراكية الماركسية "العملية" المناقضة للاشتراكية الخيالية والتي ترى فيها ضربا من ضروب الاوهام. وكان ماركس يرى حتمية تطاحن الطبقات لبلوغ الاشتراكية التي لايمكن الوصول اليها حسب زعمه عن طريق الاصلاح وبالاقناع وبالرضى وبالحدّ من الحرية الفردية لفائدة المجموع.

❀ ❀ ❀

الديمقراطية بمفهومها العصري جاءت حينئذ نتيجة لتطور مطرد. وهي في جوهرها "عقد مبرم بين جميع أفراد المجتمع الاحرار يرومون تأسيس هيئة اجتماعية متحضرة انما تستمد قوتها وسلطانها منهم. وهي ترمي الى التوفيق بين النزعة الاجتماعية في الانسان التي عالجها المفكرون منذ أقدم

العصور كأفلاطون والفارابي وابن خلدون وبين توقه الى الحرية والمساواة.

والمساواة في نظر الديمقراطية الحقيقية وفي نظر الاشتراكية التي بدونها تكون الديمقراطية بتراء ليس معناها "التسوية" بصورة حسابية آلية وانما هي توفير الفرص للجميع وتمكين الجميع من بلوغ أقصى ما يمكنهم بلوغه.

والحرية – بالاضافة الى شعور الفرد بها شعورا عميقا مع توقه اليها توقا مفرطا – لايمكن أن يكون القصد منها مبدأ من مبادىء الديمقراطية وأصلا من أصولها إلا إذا وضعناها في إطارها الحقيقي إطار المجتمع البشري أولا وبالذات. فالمجتمع الديمقراطي هو شركة كبيرة تعاقد أفرادها وتعاهدوا على أن يعطي كل واحد منهم من نفسه دون أن ينافر الاخرين – كما قد يقول الفارابي – أو يخاذلهم... واتفقوا على أن يتعايشوا ويضعوا لانفسهم بأنفسهم قوانين ترعاهم وتحدد مسؤولياتهم... :

فالديموقراطية اذن ترتكز على التوافق بين الحقوق والواجبات. وحق الفرد يقف عند حد الاضرار بالفرد الآخر. ويصبح الوقوف عند هذا الحد واجب. و"لاتستقيم الديمقراطية.... الا اذا تعادل في أفراد المجتمع الديمقراطي الشعور بالحقوق والواجبات معا ولم يطغ أحدهما على الآخر." "ولا يتسنى ذلك الا بتحقيق العدالة الاجتماعية التي لا تحصل الا في ظل المذهب الاشتراكي.

وقد أصبحت اليوم الاشتراكية أي الديمقراطية الاقتصادية والاجتماعية هي المتممة للديمقراطية السياسية التي تحررت بمقتضاها الشعوب من جميع الوان العبودية. فلا حرية حقيقية بدون عدالة. ولا حرية حقيقية بدون مساواة ولا يكفي أن يكون الناس سواسية أمام القانون... لهم نفس حق الانتخاب ولهم نفس الضمانات القضائية بل يجب أيضا أن تمكنهم من الصحة والتعليم والعمل والانتاج. كما يجب أيضا المساواة في الحظوظ والعدل في توزيع الانتاج. وبذلك فحسب يمكن رفع المستوى الادبي والمادي للمواطن.

وهذه هي الغاية الاصلية لكل نظام اقتصاديا كان او اجتماعيا.

والآن ما هو مفهومنا في تونس اليوم للديمقراطية حسبما يظهر من الاتجاه السياسي العام في دستور الجمهورية التونسية ؟

ما من شك في أن المتصفح لنص الدستور يتبين له بكل وضوح من خلال

فصوله أنه يقر الديمقراطية بأسمى معانيها ويظهر الاتجاه الديمقراطي في الدستور في النقط التالية :

أولا : يرتكز الحكم على السيادة الشعبية – فالشعب هو " صاحب السيادة " (الفصل 3) والنائب في مجلس الامة يعتبر "نائبا للامة جمعاء" (الفصل 25).

ثانيا : تمارس هذه السيادة عن طريق الانتخاب العام الحرّ المباشر السري (الفصلان 19 و 40).

ثالثا : اقرار مبدإ تفريق السلط الى تشريعية وتنفيذية وقضائية وذلك قصد الحد من السلط

رابعا : اقرار المساواة والحريات العامة والحقوق الفردية والجماعية السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

ويتبين من كل ذلك أن دستورنا لم يقتصر على مبادىء الديمقراطية السياسية. فهو يتجه كذلك الى تحقيق الديمقراطية الاقتصادية والاجتماعية

وهذه الديمقراطية الاقتصادية والاجتماعية نجدها مبينة في الدستور كما يلي :

اولا : حق المواطنين في العمل والصحة والتعليم (التوطئة).

ثانيا : استخدام ثروة البلاد لفائدة الشعب (التوطئة ايضا)

ثالثا : الحد من حقوق المواطنين لازدهار الاقتصاد وللنهوض الاجتماعي (الفصل 7)

رابعا : حق الملكية مضمون ويمارس في حدود القانون (الفصل 14)

خامسا : اداء الضرائب والتكاليف العامة على أساس الانصاف (الفصل 16)

فتكون الجمهورية التونسية تحقق اقامة الديمقراطية السياسية بما فيها من حرية وانتخاب أولي الامر كما تحقق اقامة ديمقراطية اقتصادية واجتماعية بما تسهر عليه من تحقيق المساواة والانصاف والعدالة الاجتماعية بين المواطنين واستخدام ثروة البلاد لفائدة الشعب

والواقع أن هذه المبادىء والاحوال والقواعد انما هي ضبط لما قدمه الحزب الحر الدستوري التونسي من برنامج ثوري شامل للسياسة والاقتصاد والاجتماع منذ ما يقرب من ثلاثين سنة.

وكان المجاهد الاكبر الرئيس الجليل الحبيب بورقيبة عند بعثه لحركتنا القومية التحريرية في السنوات الاولى من العقد الرابع من هذا القرن يلح في كتاباته وخطبه على المضار الاقتصادية والاجتماعية الناتجة عن الاستعمار. كما كان يفند الدعوى القائلة بالعناية بالاقتصاد قبل السياسة اذ كان يقول ان السياسة هي "الدمان" وهي "المنقالة" التي نتمكن بفضلها من تكييف اتجاهنا ومستقبلنا ...

وها نحن اليوم ومنذ ان اتجهنا الى سياسة التخطيط قد ضبطنا أهدافنا وأوضحنا طرق الوصول اليها حسب المبادىء الاشتراكية باعتبارها المتممة للديمقراطية الحقيقية حتى أصبح شعارنا اليوم : الديمقراطية والاشتراكية.

الدكتور عبد المجيد رزق الله

الربيــــــــــع

شعر : جعفر ماجد

السَّمَاءُ يَلْمَعُ صَافِياً رَقْرَاقـــاً وَالشَّمْسُ تَلْثِمُ خَدَّهُ الْبَرَّاقَا
وَالعُشْبُ رَفْرَافٌ عَلَيْهِ ضَبَابَـــةٌ شَفَّتْ فَزَادَتْ حُسْنَهُ إشْرَاقَا
كَالسُّنْدُسِ المُخْضَلِّ يَرْشُفُ طَلَّهُ دَفْقُ الضِّيَاءِ وَقَدْ هَفَا خَفَّاقَا
وَالنَّوْرُ كَالأَحْدَاقِ أَثْمَلَهَا الشَّذَى نَعْسَانَ يُرْخِي لِلصَّبَا الاعْنَاقَا
وَالنَّرْجَسُ المَيَّاسُ يُمْنَعُ ثَغْرَهُ إنَّ التَّمَنُّعَ يَفْتِنُ الْعُشَّاقَا
فَتَضُمُّهُ الأَنْسَامُ عِنْدَ هُبُوبِهَا ضَمَّ الْحَبِيبِ يُقَبِّلُ الاطْوَاقَا
هَذَا خَرُوفٌ رَاحَ يَرْتَعُ فِي بِسَاطِ الْعُشْبِ أَوْ يَسْتَنْشِقُ اسْتِنْشَاقَـــا
وَثُغَاءُ أُمِّهِ يَسْتَحِثُّ قُدُومَهُ فَيَخِفُّ نَحْوَ حَلِيبِهَا سَبَّاقَـــا
أَوْ طَائِرٌ بَيْنَ الازَاهِرِ يَرْتَمِي فِي إِثْرِ آخَرَ شَادِيًا صَفَّاقَـــاً
فِي زُرْقَةِ الاجْوَاءِ يُرْسِلُ نَغْمَةً تَمْتَدُّ حَتَّى تَبْلُغَ الآفَـــاقَـــا
وَطَنِينُ نَحْلٍ سَارِحٍ بَيْنَ الأَزَاهِرِ يَجْتَنِي مِنْ غَضِّهَا مَــارَاقَـــا
وَالاسْمَرُ الفَلاَّحُ تَحْتَ الظِّلِّ يَفْتَرِشُ الحَشِيشَ وَيَفْتِلُ الاوْرَاقَـــا

❀ ❀ ❀

الكَوْنُ يَغْمُرُهُ سُرُورٌ طَافِحُ يَنْصَبُّ مِثْلَ ضِيَائِهِ دَفَّاقَـــا
إلاَّ أَنَا مَا زِلْتُ أَمْضُغُ وَحْشَتِي وَأُطِيلُ فِيهَا الصَّمْتَ وَالاطْرَاقَـــا

جعفر ماجد

في مهب النغم

أو خـواطر حـول المـوسيقى الغربيـة

بقلم : **البشير المجذوب**

لعل أبرز ما تختص به الموسيقى الاوربية الكلاسيكية ـ من بين خصال عدة ـ ميزة التصوير والتخييل وبراعة النسج والتأليف فهى ليست مجرد تعبير عن عواطف وأحاسيس ـ كما هو شأن الموسيقى عندنا ـ بل هى مع ذلك وفوق ذلك تخاطب كلا من العقل والخيال ٠

ان الموسيقار الكلاسيكي لا يكتفي بالتعبير عما تثيره فى نفسه مشاهد الحياة واحداثها من فرح وغم وغضب وارتياح وقلق وحماس ٠٠٠ عواطف مجردة وخلاصة أحاسيس منقطعة عن دواعيها غير موصولة ببواعثها وأسبابها ٠ انه لا يقتصر على اشعارنا بمحض السرور والرضى والغضب وانما همه ووكده ان يشعرنا بالواقع الذى حرك احساسه ـ لا الجو النفسي المجرد فحسب ـ ان يغمسنا في هذا الواقع ، لكن عن طريق الرمز والتمثيل والايحاء ، حرصا منه على التعبير عن شخصيته التعبير الاكمل وحتى نشاركه بكياننا كله مشاركة ندرك فيها احساسات الفنان وأخيلته وخواطره وميوله ٠

نعم ٠ التعبير عن الشخصية تعبيرا كاملا ذاك هو هدف هذا النوع من الفن ومطمحه البعيد ٠ واذا قلنا الشخصية فهى الشخصية المثقفة وما تستتبعه الثقافة الراقية من قوة الوعى وشدة التعقيد واتساع أفق الفكر ٠

فلا غرو أن تتطلب مثل هذه الموسيقى من المستمع موقفا شديد الاختلاف عن موقف عامة الناس من موسيقاهم ، وتقتضى منه كيفية خاصة من الاصغاء ومشاركة غير المشاركة المعتادة فى فن السماع ٠

وحسبك ـ لتحقق ذلك ـ تجربة يسيرة بسيطة ففى حين ترى امكان سماع الموسيقى العربية ـ او الاوربية الخفيفة ـ وأنت مشغول الذهن مقسم الخاطر فتستطيع أن تتذوقها الى حدما دون كثير عناء او مشقة ، يمتنع ذلك عليك تمامـا اذا رمت أن تصيب ـ فى مثـل هذه الحـال ـ شيئا من الموسيقى الكلاسيكية ، فهى الفوضى والنشاز والضوضاء ان لم توفق الى النفاذ الى رموزها وأسرارها ٠٠٠ أصوات متصادمة غليظة نابية صارخة معولة تتوقف فجأة لغير داع وتجمح تارة فتركب رأسها وترتفع الى ما هو أشبه بالزلزال والانهيار ٠

ان هى الا محض دوى صورة تافهة زرية لا تعنى شيئا نشاز لا مبرر له ٠٠ قعقعة تزعج النفوس وتؤذى الاسماع ٠

وما ذلك فى الحقيقة الا دليل على ان الانسجام العاطفى أيسر وأقرب منالا من الانسجام الخيالى أو العقلى ، فكيف اذا كان الانسجام المطلوب هو انسجام الكيان كله وتضافر الملكات جميعا ٠

لقد كلف الفنانون الاوربيون الموسيقى فوق طاقتها وما كادت أن تنوء به ٠ لقد أرادوها لغة جامعة تفى بجميع الفنون ٠ فيها الرسم والرقص ، فيها القصة والشعر بل فيها أيضا خطرات من حكمة ونفحات من فلسفة ، فاحتاج هواتها كى يتذوقوها ملء نفوسهم ويستوعبوها غاية الاستيعاب الى التوفيق بين قوى النفس من شعور وخيال وشىء غير قليل من حدة الذهن وتجمعه واكتنازه ٠ كالقصيد من الشعر العالى الرفيع لا قبل لك بأن تظفر بحسنه الا اذا نظرت اليه ــ ساعة الانشاد ــ نظرة تأليف وتحليل معا فلا يشغلك الكل عن الجزء ولا يذهلك التفصيل عن الجملة ، فيجتمع فى نفسك حذر اليقظة ولين الاستسلام ٠٠٠ شىء من قسوة العقل والكثير من سماحة العاطفة وتوثب الخيال ٠

انهـا حال من « الهداية » والتوفيق وسط بين اليقظة الذهنية النيرة الحادة وبين ضفاف اللاوعى المعتمة ، حالة من التوازن الرائع الدقيق الذى لا تكاد تستقر عليه النفس طويلا ، وانما هو كسب مستمر وظفر متجدد مستعاد ، فكان العسر وكان الغموض الذى يبلغ أحيانا حد الانغلاق والامتناع مما دعا الكثير من الناس ، وحتى المثقفين ، الى استهجان هذا النوع من الفن ونكران فضله ، فهو عندهم ضرب من اللهو العقلى المترف ٠٠٠ لغة اصطلاحية وقف على فئة قليلة من الخواص اصطنعها لهـم بعض الفنانين تحذلقا واغرابا ٠ أما عسرها وخفاؤها فأمر لا طائل تحته ولا موجب له فهو العبث يقع جزافا واعتباطـــا ٠

ولا غرابة ولا اشكال فى الامر اذا أدركنا موقف الموسيقار الكلاسيكى من فنه ومن الوجود معا وعرفنا الطريقة التى يتوخاها لتحقيق مراميه وأهدافه ٠

أما من حيث الموقف فقد طمح الفنان الغربى جهده الى ان يرفع موسيقاه الى مستوى الكون أجمع أعنى أن يتسع فنه للانسان كله والطبيعة بأسرها فيحفل بما لا يحصر من المعانى عدا واختلافا فمن أنسام مترنحة عابثة تلاطف السمع والنفس ومياه تئن قطراتها كأنها البلور الناطق الحى الى زلزال أرعن وانفجار أهوج حتى تميد بك الارض ويرتج الفضاء ٠

هذا التجاوب القوى والتعاطف العميق مع الطبيعة هو من ميزات الفن الكلاسيكى الرئيسية وهو من العوامل التى أكسبته خصوبته وغزارة مادته ونضارة ألوانه ٠

ان هذا الفن ليس مقصورا على الانسان وعواطفه بل هو يتجاوز الانسان ويتخطاه فيشرف على العالم الخارجي ويعطينا منه صورة شعرية رمزية بل قد يشعرنا بملامحه وخطوطه وأشكاله وظلاله وأنواره في حال انسيابها وتدافعها واهتزازها وسكونها وكأننا نبصر هذه الرؤى في شبه هالة او ضباب نوراني ، من خلال حجب تشف وتكثف ، تزول وتبعث على رسلها كأنها ألاعيب السراب أو تهاويل السهاد ٠

انه « مسرح » زاخر بالحركة والاحياء والاشياء لا صوت مفرد ، مناجاة منعزلة ، غناء منسدة آفاقه كما هو الحال في الموسيقى العربية وفي كل موسيقى تغلب عليها وتطغى الغنائية الصرفة ٠

وما أحوج موسيقانا العربية المحبوسة القوى المكبوتة الانفاس الى مثل هذا الانفتاح الرحب المشرق والى شيء من التهوية فتطلق من برجها العاجي وتقلع عن الهذيان المستمر بأهواء النفس ونزواتها والبكاء المرير على أوصابها وكلومها ٠٠٠ نغمة واحدة مكرورة لا تنفك تحوم حول الحب في اضيق معانيه حتى يسأم ويجتوى ويزهد في سماعه ٠ (1)

انها بأشد الحاجة الى خلع حدود فرديتها الضيقة فتبرز الى النور وتعانق الوجود وتضحى غذاء ملقحا للفكر منعشا للروح لا أفيونا مخدرا للقوى باعثا على النوم مغريا بالنزول الى سراديب الاحلام المبذولة واللذاذات الآسنة المريضة ٠

أما نظر الفنان الكلاسيكي الى الموسيقى ، أما مفهومه الفني فبين الاختلاف والتمييز عن النظر الشائع بيننا ٠

أليس غاية ما يطلب من الموسيقى عندنا أن تطرب ، أن تؤنق الاسماع ٠٠٠ أن تأخذ بمجامع الفؤاد ، أن تريح الاعصاب وتشرح الصدور وتنزل على القلب ، كما يقال ، بردا وسلاما ٠

وما ذلك مبتغى الفنان الغربي وليس ذلك بمقنعه فهو ليس يهدف الى الاطراب والتأثير قدر ما يهدف الى التعبير والتخييل أو هو على الاصح يوفق بين هذين الاصلين لكل فن رفيع خالد أعني الجمال والحقيقة ٠ نسيج رائع لحمته الواقع وسداه حلية الفن ٠ انه يمزج بين العنصرين أحكم مزاج وأدقه حريصا على الا يفرط شيئا ــ مهما تكن ضآلته ــ وألا يضحى بالحقيقة من أجل البهرج ٠

فالغاية القصوى هي المعنى ، أو الدلالة معبرا عنها حسب أصول الفن ٠ وما الحقيقة ؟ وما الواقع ؟ جم لا يحصى من التجارب تنتظم شتى الاحساسات

(1) أستثنى من ذلك الموشحات الاندلسية لما فيها من سلامة الذوق وطرافة السبك وخصب الشاعرية ٠٠

والمواقف والصور والمشاهد والاخيلة والاطياف مما تقصر عن تسجيله الحياة الواحدة مهما خصبت وامتدت ٠

لـذا نجد الموسيقار ـ على غرار صنوه الكاتب أو الشاعر الكلاسيكى ـ لا يلفظ أحاسيسه مادة خاما كما يجيش بها صدره موسومة بطابع الفرد مكشوفة النسبة تستروح منها نزعات الفنان الخاصة فيأنف الـذوق من سفورها ويضيق ويحرج من عريها ٠ لا بل هو يعمد الى السيطرة على انفعاله قصد استغلاله ويسعى الى تحويل هذا الانفعال الى لغة صقلها الفن تهذيبا وتداولها الذوق تنسيقا ٠

انه يمتنع من البوح الصريح والمناجاة المباشرة ويتحامى جهده أسلوب السرد والحكاية ، ولن تراه يتعجل تيار القريحة ان آلمه وألح عليه ضغطه فيعمد شأن الضعاف من الفنانين الى التحرر ٠٠٠ الى التخلص فى أوجز وقت ، وكيفما كانت الحال ، من دفق العواطف وزحمها فيلين لها ويفتح دونها باب البوح والافضاء على مصراعيه ٠

انه ـ على العكس من ذلـك ـ يغذى قلقه ويخصبه وينميـه ملتذا ايـاه موسعا فى أفقه ويفقده فى النهايـة غلظة « الأنا » وقساوتها ويضمن لفنـه مزيـدا من القـوة والفاعلية ـ مـع اقتصاد فى الوسائل واحتشام فـى الصياغة ـ بأن يتقمص الكائنات جميعها وينطق على لسانها ويختفى وراءها فيكون بذلك للانسان والطبيعة أصدق ترجمان ويكسب الموسيقى من الثراء والعمق والشمول ما لا يكاد يتفق للفنون الاخرى ٠

يعرض لك ـ مثلا ـ أن تصغى الى مسرحية غنائية (Opera) فيخيل لك بل تحس ـ لا سيما عند سماع الكورس (Chœur) ـ كأن شيئا يطوف فى الفضاء ويرود مصوبا مصعدا ٠ أى شىء هو ؟ عربات مجنحة ، تحليقة أسراب خفية من عمالقة الطيور ٠٠

ثم الاحساس بأنك تندمج شيئا فشيئا وتنسلك فى هذه الدورة الموقعة الموزونة كأنها رقصة الافلاك ، ويتسرب اليك دوارها الرفيق ٠

واذا بالانغام تخرقك وتتخللك ٠٠ كائن شفاف أنت ٠٠ لا كثافة ولا ثقل ويحملك التيار الصوتى قهرا فتسفل صعدا وترتفع الى هوة بعيدة القرار ٠

احساس أخاذ بليغ حاد بالفضاء أبعاده الثلاثة ٠ فضاء يمور مورا ويخفق حركة دائمة ٠

والصمت فـى الموسيقى السنفونية ! رهبـة الصمت وجلالـه او بشاشته وأنسه ٠ صمت يعمـق ثم يعمق ويغـور ويتسع ويموج بالاسرار فكأنـه

الهيكل المظلم تترنم أرجاؤه همسا لا يكاد يبين أقرب الى الوهم منه الى الحس ٠٠ كالحفيف أو الصدى المكبوت الذاوى ، فكأنك تلمس ، تجس « حجم » الصمت وتقيس وتدرك سمكه واتساعه ومداه ٠

لقد تفطن الفنانون الغربيون منذ زمن بعيد الى ما فى الاصوات ـ علاوة على صبغتها وقيمتها الجمالية ـ من طاقة ايحائية (خاصة اذا نسقت على هيئة مخصوصة وأحكم نسجها) واستغلوا هذه الميزة أبعد استغلال وأخصبه مما لم ننتبه اليه نحن الشرقيين حتى فى ميدان الادب الا القليل منا وقد ضاع صوته ولم يكن له أثر يذكر (2)

هذه الظاهرة هى أرفع ميزة فى الفن الكلاسيكى وهى شبيهة بصفة « النتوء » او « العمق » (Relief-perspective) فى الرسم ٠

ولم تتم هذه الخصلة الا بفضل ما أوتيته هذه الموسيقى من تعدد العناصر وتباينها وتشابكها وانتظامها فى هندسة دقيقة معقدة رائعة الاحكام (Contrepoint - harmonie, fugue) ثرية بالصور والاوزان ٠٠٠

كاللوحة متناسبة ألوانها رغم اختلافها وتباعدها متآلفة ظلالها وأنوارها ٠٠٠ وكالبناء تروعك فخامته وتكاد تنوء بعظمته ولكنك تطرب وترتاح الى تناسق نسبه وأحجامه وانسجام خطوطه وأشكاله ٠

فلا بدع اذن أن تكون القطع الكلاسيكية ـ وعلى الاخص السنفونيات ـ معينا لا ينضب من غريب الاخيلة ومتنوع الاحاسيس وطريف المفاجآت ٠٠٠ خلقا يجدد فى كل آن ٠٠٠ « لغزا » يبسط ويحل معا فى كل لحظة ٠ وليس ثمة شىء ثابت نهائى الا النغمة الاصلية تضيع وتدرك من خلال الكثرة الموحدة والشتات المنظم ٠

وأنك لتشهد ـ وأنت فى أوج سماعك ـ انبثاق الالحان وتفتحها ونشوء النغمة الموافقة المطلوبة انتظرتها مليا ـ فى غيابات نفسك ـ واستبطأتها ورجوتها فاذا هى تتحقق وتتجسم وعليها طابع الجدة والغرابة ومسحة الطرافة والبكارة وان كنت قد توقعتها فى مثل اليقين شأن العاشق المتأكد من مجىء حبيبته ولكنه ينتظرها فى حيرة ولهفة فاذا طلعت عليه فكانها زفت اليه عرضا ٠٠٠

(2) ابن الاثير ٠ راجع المثل السائر ٠ ج 1 ص 178 « وبعد هذا ، فاعلم أن الالفاظ تجرى من السمع مجرى الاشخاص من البشر ٠٠٠ » انظر أيضا ج 2 ص 369 ـ منه

نعم « لعبة الانتظار والمفاجأة تلك هي الموسيقى (كما عرفها بعض الادباء الاوربيين) وان أصدق ما يقال في روائعها ما أنشده النواسي • قال :

تأمل العين منها محاسنا ليس تنفد
الحسن في كل جزء منها معاد مردد
فبعضه يتناهى وبعضه يتولد
وكلما عدت فيه يكون بالعود أحمد

المبشير المجدوب

ملحق لما ورد في المقال من تعليق وشواهد •

جاء في المثل السائر ـ ج 1 ص 178 : « وبعد هذا ، فاعلم ان الالفاظ تجرى من السمع ، مجرى الاشخاص من البصر ، فالالفاظ الجزلة تتخيل في السمع كأشخاص عليها مهابة ووقار • والالفاظ الرقيقة تتخيل كاشخاص ذوى دماثة ولين أخلاق ولطافة مزاج ••• »

وجاء أيضا في الجزء 2 من نفس الكتاب ص 369 : « اذا خاض (أى المتنبى) في وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها وأشجع من أبطالها وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها حتى تظن الفريقين قد تقابلا والسلاحين قد تواصلا » غير أن الاديب الوحيد الذى أحس بهذه الخاصة الايحائية في الموسيقى وأبدع في التعبير عنها هو ابن الرومى وقد سبق الى هذا المعنى الشاعر الفرنسى Baudelaire انظر قصيدته Correspondances

قال واصفا احدى القيان :

ذات صوت تهزه كيف شاءت مثلما هزت الصبا غصن بان
يتثنى فينفض الطل عنه في تثنيه مثل حب الجمان
ذلك الصوت في المسامع يحكي ذلك الغصن في العيون الروانى

عـــودة الســـنونو

شعر : نور الدين صمود

هَجَرَ السُّنُونُو عُشَّهُ وَتَرَحَّلاَ
أعَزَمْتَ – مثْلَ رَحيلهِ – أنْ تَرْحَلاَ ؟
قَدْ كَانَ يُطْرِبُنَا بِسِحْرِ غِنَائِهِ
فَيُشِيعُ فِي الأجْوَاءِ دِفْئاً مُذْهِلاَ
وَيَظَلُّ يُغْرِينَا بِعُشٍّ حَيَاتِنَا
مَا أرْوعَ العُشَّ البَرِيءَ وأجْمَلاَ
وَتَجُولُ كَفُّكَ عَبْرَ شَعْرِي هَامِسًا :
"مَا أسْوَدَ الشَّعْرَ الكَحِيلَ، وَأطْوَلاَ...
وَتَقُولُ لِي : "إنِّي أحِبُّكَ... أيْنَ يَا...
مَنْ أرْهَقَ القَلْبَ الأخِيذَ وَكَبَّلاَ...
تِلْكَ الأغَانِي ؟ – وَهْيَ كُلُّ سَعَادَتِي
– بَلْ خَيْرُ مَا غَنَّى الْخَيَالُ وَأمَّلاَ –
قُلْ لِي : "أحِبُّكَ" وَلْيَكُنْ أكْذُوبَةً...
ذَاكَ الغَرَامُ، فَإنَّ قَلْبِي مَاسَلاَ

❀ ❀ ❀

يَحْنُو الفَرَاشُ عَلَى الزُّهُورِ فَيَرْتَوِي
مِنْ ثَغْرِهَا مُتَرَشِّفًا وَمُقَبِّلاَ
وَيَصُبُّ فِي آذَانِهَا لَحْنَ الهَوَى
فَكُنِ الفَرَاشَ فَإنَّ زَهْرِي قَدْ حَلاَ
وَكُنِ الرَّبِيعَ فَإنَّ قَلْبِي زَهْرَةٌ
مِعْطَارَةٌ رَفَّافَةٌ لَنْ تَذْبُلاَ
عَدْلِي. غَدًا يَأتِي السُّنُونُو يَبْتَنِي
عُشًّا، إذَا هَلَّ الرَّبِيعُ وَأقْبَلاَ

نور الدين صمود

شهـادة على جيـل

بقلم : مصطفى الفارسي

قال صاحبي (1) : قرأت لك في موضـوع القصـة ـ اجنبية وعربية ـ الشيء الكثير وقد لاحظت أنك ـ وان آمنت بمستقبلها في بلدنا وبلاد العرب بصورة عامة ـ تقيم من الحدود والحواجز في طريق نهضتهـا وتركيزهـا ما يجعلني في حيرة وتعلم اني أجيد كتابة القصة وان مثلي كثير ٠

قلت : ربما اختلفنا في مفهوم القصة ، في مضمونها الحي الذي يميزها عن غيرها من الالوان الادبية الرائجة ٠ القصة في نظري بنوعيها القصير والطويل هي أكثـر الالـوان الادبيـة في العالـم المعاصـر ٠٠٠ فهل تسـاءلت أولا عن سبب هذا الرواج ؟

قال : مأتي ذلك في نظري العصر نفسه ٠ فلم يبق أمام الكتاب متسـع من الوقت يخولهم الانكباب على أثر ادبي مسهب أو بحث اجتماعي او سياسي أو فلسفي مدقق واسع اذ عصرنا يمتاز بضيق الوقت ٠

قلت : حقيقة ما تقول لكن ضيق الوقت وحـده لا يفسر رواج القصـة في عصرنا ومأتي هذا الرواج في نظري القصة نفسها ذلك انها رحبة الافاق تتسع لكل خاطرة وفكرة وانفعال ولا تضيق دون المفاتن الجمالية في الاسلوب وهي الى جانب هذا ترضي كل ذوق فمن القراء من يسترعي اهتمامه عقـدة الموضوع وطريقة نسجه وبسطه ومنهـم من يتوقف عنـد طلاوة السرد او طلاقة الحوار ومنهم من يهتم بدقة التحليـل النفسـاني او الوصف الطبيعي أو بتطور الفكرة التي انبنت عليها القصة ٠ والقصة تشكل حقـا بناء فنيـا قائما بذاته مما يجعلها تختلف عن الحكايـة بقـدر ما تختلف عـن الرواية المسرحية او الاسطورة او النقـل المكتوب والمسموع او الخاطرة وحتى عن الرواية القصصية التي كثيرا ما يعتبرها الناس قصة مطولة وهذا كما تعلم غلط وخلط في الانواع شائع جدا ٠ فالقصة اذن نوع من الادب قائم بذاته له أصوله الفنية الخاصة به وهي في أصولها الفنية هذه تعبير حي عن مظهر حياتي او صورة واقعية او خيالية في زمن معين وفي ذروة الانفعال ٠

قال صاحبي : الخلط في الانواع شائع كما تقول ٠ فالقصة حديثة العهد

(1) يبحث هذا الحوار مشكل القصة ، وهو فصل من كتاب ألفه صديقنا الاستاذ مصطفى الفارسي في هذا الموضوع ونحن نرجو أن يلقى المساعدة والعناية كي يخرج هذا المؤلف للناس ويساهم في اثراء المكتبة التونسيـة

الفكـر

في الادب العربي ولكن كثيرا من نقاد الادب في بلادنا يجدون اصلا للقصة في الادب العربي القديم • فما رأيك في هذا الزعم ؟

قلت : ربما اتصلت القصة من بعيد بالتراث القديم • فسورة يوسف وما اليها من قصص الانبياء وحكايات الف ليلة وليلة والمقامات الهمذانية والحريرية كلها في نظري توطئات لهذا الفن الذي ظهر في النصف الاول من القرن التاسع عشر على يد غوغول الروسي وادغاربو الامريكي • ولم يعرف الادب العربي محاولات قصصية قبل سليم البستاني وجبران خليل جبران ومصطفى لطفي المنفلوطي • أما ان نجد أصلا للقصة في المقامة مثلا فهذا أمر لا يعقل • أنت يا صديقي من كتاب القصة في مفهومها الذي حددناه • أما الهمذاني أو الحريري فقد عالجا المقامة والمقامة دون القصة •

قال صاحبي : يدعي البعض ان الاقصوصة من حيث مداها وانحصارها بواقعة معينة انما هي مقامة مستحدثة الاسلوب •

قلت : لكن شتان بين أسلوب المقامة المقيد وسجعها الرتيب واغرابها في اللغة وموضوعها المبتذل وبين الاقصوصة التي يفترض فيها الانشاء السلس والحوار الخفيف البديهي العفوي والعقدة المركزة الجديرة بالاهتمام لانها تبسط أمامك مشكلا انسانيا او تضع نقطة استفهام ثم تحاول أن تجيب عن سؤال ربما ألقيته أنت على نفسك مرارا وكثيرا ما تنتهي القصة على نقطة الاستفهام نفسها فيبقى المشكل قائما كاملا •• وكم من مشاكل لا تجد الانسانية لها حلا •• فالقصة اذن تخالف السرد السطحي لانها تقتصر على تمجيد اللحظة العابرة في ذروة حدث ما وعلى تصوير الاشخاص في الاوضاع الزمنية والمكانية التي يفاجؤون فيها دون أي تدخل مباشر من القاص • ومن تلك الاوضاع نفسها ينطلق القاص نحو القبل ونحو البعد في عفوية لا رتابة فيها وفي حدود الموضوع ومدار الجو الذي يدور فيه الحدث في ذروته وفي قمة فعله وحركته • فبقدر ما تقترب القصة من هذا المقياس تستكمل عناصر النجاح الى أن تصبح ذلك الاثر الادبي الحي الذي خلده للبشرية أمثال همينغواي وغوغول وادغابور وتشيكوف وغي دي موباسان ومارون عبود وحتى جبران والمنفلوطي في بعض اثارهما •

قال صاحبي : كل هذا متماسك وممتع لكن ما هي الرواية الحديثة في نظرك ؟ وما هذه النزعة الجديدة التي طلع بها على العالم القصصي رواد القصة الحديثة في اروبا وقد نعتها في بعض بحوثك بنفي القصة أو باللاقصة ؟

قلت : هي شهادة على جيل • تعلم يا أخي ان أمريكا قد عرفت في مستهل هذا القرن موجة جديدة في الرواية نعتها النقاد بفترة « الشباب الغاضب » وفرنسا تعيش الآن في معترك موجة ينعتها النقاد بفترة « اللاقصة »

هناك تيارات أدبية تدعى انها فى طليعة ألادب الحى فالفراد كان مثلا قائد من قواد هذه التيارات ومن جهة أخرى فـروب قريبـاى يدعى هو أيضا أنه قائد الركب المجدد وأن له أبناء روحيين أمثال ميشال بيطور وناتالى سروت وكل هؤلاء يرفضون كل تقليد ويتنكرون لكل قيمة ادبية سابقة انهم يريدون خلقا من لا شىء • فاذا بهم ينسفون المفهوم الروائى الكلاسيكى ويستبدلونه بمفهوم جديد •

فقال صاحبى : فهل يعنى هذا أن المدرسة البلزاكية عادت لا تعنى شيئا فى نظرهم •

قلت : وحتى مدرسة بروست ••• رغم أنهم أخذوا عنهـا الشىء الكثير فهى فى عرفهم قديمة •

قال صاحبى : وهل نسوا انها كانت جديدة فى عصرها ؟

قلت لكل جيل حركات وقواد توجه تلـك الحركـات • وهؤلاء يهملـون العنصر الازلى الذى يفسر دائما نجاح الاثار الخـالدة فكل حديث لابـد أن يصير قديما بدوره فسنة التطور تقتضى هذا ••• أما ما يجدر الاهتمام به والانكباب عليه فالادب الجيد حديثـا كان أم قديمـا • وأمـا غير ذلـك من الاعتبارات فمذهبية صرف ولكل مذهب أنصار معتدلون ومغالون • فلننتظر ردحا من الزمن ••وعندها يصبح انتاج النزعة الادبية الجديدة قديما بدوره فيمكننا أن نحكم له أو عليه اذ القيمة لا تستند الا لمـا يبقى بعد أن يجتاز محنة الزمان وكل ما يمكـن أن نتنبأ بـه الآن دون أن نتعرض الى الغلـط الفادح والخلط الخطير هو أن بعض الانتاج الجديد جيد حقا ويستحق بذلـك كل الاهتمام لانه شهادة على جيل • فالروايـة الحديثـة صـورة العصر بل صورة المجتمع ككل لا كافراد وهى تعكس انفعالات الجيل وامانيه ومشكلاته فى اطار جمالى لا نزاع حوله • فالجيل المضطرب يفترض اثارا يغلب عليهـا الاضطراب فى شكلها ومحتواها فى اسلوبهـا ومضمونهـا فى زيهـا اللفظى ومعناها الخفى •• أما أن يدعى رواد هذه النزعـة انهم انطلقـوا من لا شىء فهذا غلو صريح فقد تأثروا بكامو وبكافكا وبغيرهما وان ساروا بعد ذلك فى اتجاه مكمل حينا ومعاكس أحيانا •• وبمـا أن عصرنا عصر الغلـو والشطط فلتكن هذه الاثار شهادة للغد على يومنا •

⁂

ومرة اخرى يجمعنى الحديث بصاحبى حول موضوع القصـة او الروايـة بمعناها الشامل واحتد النقاش وكدنا أن نفترق على غير اتفاق • هو يؤمن بأن النزعة الجديدة فى القصة الاوروبيـة لابـد أن تظهر على كل النزعات لا لشىء الا لانها جوهرية ولانها ثورية ولانها خاصة ـ وليدة عصرنا الصاخب•

قال صاحبى : « لست أذكر الان اسم الشاعر الفرنسى المعاصر الـذى قال : ان لا نعيش فى الحاضر يعنى اننـا لا نعيش أبدا فالفنـان أو الاديب

وليد بيئته وعصره يتأثر بهما ويؤثر فيهما » والنزعة الجديدة فى القصة او فى الرواية ان أردت الشمول تخضع لمقتضيات العصر فهى اذن مطبوعة بطابع ذرى ثائر نلمح آثاره لا فى الرواية فحسب بل وفى الرسم والمسرحية والرقص والموسيقى والاغنية الحديثة . فالرسم نظرى لا ملموس والمسرح لا يخضع مع ايونسكو الى القيود الكلاسيكية والرقص ماديسون وتويست أما الفالى والتنغو وما شابههما فلا يجدان من مناصر غير الشيوخ او المقعدين والموسيقى ما رأيك فى الموسيقى الحديثة يا اخى .. اتعتبرها أيضا جعجعة صاخبة خالية من الايقاع والتشويق ؟

قلت حاشا أن أفعل ... فمن الموسيقى الحديثة ما يطرب ، فالكاليبسو والنغرو سبيريتيالس وحتى بعض التويست والماديسون لا تخلو من ايقاع ربما وصل الى الاعماق لكنك يا أخى تعمم وتعميمك هذا يضلك ويعميك . ذكرت الساعة قولا ماثورا للشاعر الفرنسى المعاصر « بول جيرالدى » ولكنك وقفت عند منتصف الآية واهملت النصف الثانى . فشاعرك هذا يستنكف من التعميم ولذلك يقول فى نفس الوقت « الا أن من يقصر عيشه على الحاضر يعيش اعمى وأصم لان فى الانسان عنصرا زمنيا وعنصرا ازليا فى وقت واحد » .

ولقد أهملت العنصر الازلى الذى اعتبره أنا لا تتمة عفوية او حشوا لفظيا بل أساسا لا يستقيم المعنى الا به . فكل حديث لا بد أن يصير قديما بدوره فهذه سنة فى الكون لا يمكنك أن تنكرها اذ هى سنة التطور والصيرورة فى معناها الوجودى Le devenir existentiel

فقاطعنى صاحبى : احذر من الانزلاق يا اخى .. فهذا موضوع آخر لا دخل له فيما نحن فيه .

قلت : وما يمنعنا من التعريج عليه ما دمنا فى صلب المشكلة مشكلة القديم والحديث فى الادب والفن بصورة عامة . المهم فى الواقع يا اخى هو ايجاد المقاييس التى تساعدنا على التمييز بين هذا وذاك ثم هل تقدر هذه المقاييس أن تصمد فى وجه التطور السريع . المهم فى نظرى بما أن الحديث صائر الى قديم بدوره هو ذلك الذى يبقى بعد أن يجتاز محنة الزمان . فتاريخ صدور كتاب ما لا يكفى أن يجعل من الاثر الادبى الذى يحتوى عليه ذلك الكتاب أثرا جديدا رغم تتابع الايام . فالجديد عندى ما طرق قضية انسانية خطيرة تهم انسان اليوم وانسان غد وكل يوم .

قال : ومن نازعك هذا الرأى ؟

قلت : أنت ، بتعميمك وشدة اعتقادك فى نجاح كل اثار النزعة الجديدة فى الرواية . فلرب قصيدة لابى نواس « الوجودى » طبعتها الحداثة بطابع قلما نلاحظه فى كثير من الدواوين المعروضة اليوم فى المكتبات . ويصح

هذا القول فى أبى فراس الحمدانى من قصيدة : « أقـول وقد ناحت بقربى حمامة٠٠» وقد تجاب أن فرلان الفرنسى لم يسبقه الى تحليل نفسية السجين ولا الى حنينه الى الحرية ٠ وقصائد النابغة الذبيـانى .. الا ترى فيهـا من الحداثة ما يجعلها تتجاوز فى مادتهـا الانسانيـة عصرهـا الى كل عصر ٠ فمشكلة القديم والحديث التى شغلت النقاد والكتاب فى كل عصر ربما تجد حلا فى مقاييس التمييز التى ذكرت فالمهم فى الادب الذى يمكن أن ننعته بالحديث هو المضمون الحى للاثر لا طريقـة التعبير التى تختلف من عصر الى عصر ٠ فاناقة التعبير ــ مثلا ــ لا تنقذ المادة التافهة ٠

فقال صاحبى حانقا : « ومن ادعى أن المادة التافهة تنقذ ولو بسلاسـل من ذهب ؟ نحن بصدد الحديث عن المضمون الحى لـلاثر الادبى لا عـن طرق التعبير وعن القشور والزبد ٠ كل هذا يذهب جفاء كما تعلـم ٠ أما الادب الحى حديثا كان أم قديما فهو باق ولا ريب لانه يستقطب الانسان فى شتى همومه وتجاربه ويستقصى أحواله وآماله ولا فرق ان كان شعرا او نثرا او حوارا فقصيدة « الارض الخراب » لاليوت لا تقل شأنا عن رواية « الشمس تشرق ايضا » لهمينغواى ٠ فكلا الاثرين يدور حول فكرة العالم التائه الذى فقد كل قيمة يمكن أن يتشبث بها الانسان ٠ وانا اعتقد ان فكرة اللاشيئية والعدم واللامعنى التى بنيت على أساسها القصيدة والرواية هى نفس الفكرة التى تطغى على الادب الحديث فى اوروبا وعلى الانتاج الفنى بصورة عامـة ٠ فالمحدثون يشعرون بحاجة ماسة الى قلب أوضاع لا ترضيهم ولا ترتاح اليها ضمائرهم ٠ فهم ينظرون نظرة جديدة الى المحيط والبيئـة والاشيـاء نظرة يمليها عليهم الواقع الذى يحيونه كما نظر اليـوت وهمينغـواى الى واقـع عصرهما على اثر الحرب العالمية الاولى وحاولا أن يخلقا اثرا أدبيا حديثا ذا مضمون حى يعكس قضية انسانية خطيرة تهم انسان اليوم ــ يومهما ــ وانسان الغد وكل يوم ــ يومنا اذن ــ وهذا ما يجعلنى اقـارن بين انتـاج فترة ما بعد الحرب العالمية الاولى والانتاج الادبى المعاصر الذى هو فى نظرى خير ممثل لفترة غلبت عليها أعاصير الاهواء والنزعات المذهبية والتيارات السياسية والتسابق فى صنع الاسلحة الذرية وفى التجارب النووية ٠

قلت : وهلا دفعنا كل هذا الى تهدئة الاعصاب والى التمعن الرصين ؟

فقال صاحبى : « الاعاصير تؤجـج النيران ٠ ولن تهـدأ الاعصـاب الا باخماد النار ٠ »

مصطفى الفارسى

عبقريـــــة ابن خلـــــدون

بقلم : احمد خالد

1 — شعور ابن خلدون بطرافته :

العبقريّة كما ضبطها "ليتري"(1) استعداد خاص للفكر البشري يرفع صاحبه الى درجة غير معتادة، ويجعله قادرا على الخلق والابداع. ففي العبقرية تبدو الطرافة والشذوذ.

ولقد شذّ ابن خلدون عن أهل عصره شذوذ العبقري. فمتى عدت الى "مقدمته" والى "كتاب التعريف" الذى صدّر به هذه المقدّمة وجدت إشارة إلى شذوذه وتلميحا الى عبقريته في حكمه على نفسه. فهو يفتخر بأنّ علم الاجتماع الذى وصل إلى استنباطه في "المقدّمة" وسمّاه "عمرانا بشريا" وبأنّ فهمه الجديد للتّاريخ ليسا من قبيل المعتاد في عصره وتبدو طرافته في تشييده علم التّاريخ في قالب هيكل فلسفيّ واستنباطه من فلسفة التاريخ علما جديدا هو علم العمران البشري الذي يبحث في شؤون البشر من حيث الملك والكسب والصنائع والعلوم.

وقد أشار ابن خلدون في مواطن مختلفة من كتاب "التعريف" الى غرابة نتاجه الفكري أي طرافته، فاقرأ قوله : "فأقمت بها (يريد قلعة بني سلامة وتسمّى قلعة تاوغزوت الواقعة في مقاطعة وهران من بلاد الجزائر) أربعة أعوام مُتَخليا عن الشواغل كُلِّهَا، وشرعت في تأليف هذا الكتاب (المقدمة وكتاب العبر) وأنا مقيم بها، وأكملت المقدّمة منه على ذلك النحو الغريب الذي اهتديت اليه في تلك الخلوة فسالت فيها شآبيب الكلام والمعاني على الفكر حتى امتخضت زُبْدَتُهَا وتألّفت نتائجها..."(2) وتتعدد النصوص في معنى الشُّذُوذ والنبوغ في "التعريف... وفي "المقدمة". فها هو يقول في "المقدمة" : "وسلكت في ترتيبه وتبويبه مسلكا غريبا، واخترعته من بين

---

(1) أنظر : Emile Littré « Dictionnaire de la Langue Française » Éd., Hachette 1958, T. 4, voir Génie.

(2) ابن خلدون "التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا" تحقيق محمد بن تاويت الطنجي — ط. القاهرة 1951 ص 229.

المناحي مذهبا عجيبا وطريقة مبتدعة" (3) فإنّك ترى أنّ صاحبنا كان متيقنا من أنه يمتاز بشخصية فذّة في عصره في الميدان الفكري.

ولقائل أن يقول : كيف وصل ابن خلدون الى استنباط علمه الجديد علم "العمران البشري" والى استنباط فلسفته في التاريخ ؟ فهل اهتدى الى ما اهتدى اليه في عزلة تامّة من دون أن يكون قد خاض غمار الحياة السياسية في عصره ؟ إنّ ابن خلدون فضلا عن كونه مفكّرا سياسيا له نظرية كاملة في الملك(4) ناشط سياسيّ ومغامر معا. ولئن كان التفاعل كبيرا بين هذين الناحيتين فسنهتم هاهنا خاصّة بمكانة ابن خلدون في الحياة السياسية في عصره.

2 — ابن خلدون والحياة السياسية :

عمت الفوضى الاقطار الاسلامية في عصر ابن خلدون وكثرت فيها التقلبات فكانت بمثابة القاعدة السياسية يومئذ. وشابه ابن خلدون عصره إذْ "تقلبت (حياته) بتقلبات حياة الممالك الاسلامية في عصره وتلونت بلونها القاتم المرّ" (5) فَمَتَى نَظَرْتَ فَرَأَيْتَ شُذُوذَه عن أهل عصره وطرافته في العلم الجديد الذي استنبطه حَكَمْتَ بأنَّه كَشُعَاعٍ من نُور ساطعٍ لَمَعَ فَجْأَةً في الدَّيْجُور، دَيْجُور العالم الاسلاميِ يَوْمَئِذ، فَبَهَرَ الابصارَ وملأَهَا فكأنّها لم تُبْصِرْ وقد حاول ابن خلدون لما في نفسه "من قوّة الموهبة وعلوّ الهمّة" (6) ولتفوّقه على أهل عصره تبوّأ مكانة سياسية هامّة، بخَوْض غمار الحياة السياسية وبالمشاركة في مؤامرات تُحَاكُ في البَلاَطَات. وهذا "تعريفه" يَدُلّ على أنه لم يَسْتَقِرّ على حال بل انتقل من بلاط الى آخر حسَبَ الظّرُوف، فدخل في خدمة السّلطان الحفصي ثم ما لبث أن تركه قاصدا بلاط السلطانَ أبي عنان المريني إلاّ أنّهُ تامر عليه فحُبِس، ثم أطلق سراحه بعد مَوْتِ أبي عنان. فاقرأ قوله في "التعريف" : "وبادر القائم بالدولة الوزير الحسن بن عمر الى اطلاق جماعة

---

(3) "المقدمة" ط. القاهرة بلا تاريخ ص 6.

(4) أنظر محمد الطالبي "نظرية ابن خلدون في سلطة الدولة... الفكر عدد مارس 1961 ص 34 وانظر : Gaston Bouthoul «Ibn Khaldoun, sa philosophie sociale» Paris 1930, chap.Psychologie Politique

(5) أنظر مقال فرحات الدشراوي "عبقرية ابن خلدون" الفكر عدد مارس 1961

(6) أنظر المقال السابق

من المعتقلين كنت فيهم، فخلع عليّ وحملني وأعادني الى ما كنت عليه، وطلبت منه الانصراف الى بلدي فأبى عليّ وعاملني بوجه كرامته ومذاهب إحسانه الى أن اضطرب أمره وانتقض عليه بنو مرين...(7) ففي النصّ صدى لمقامه الممتاز عند الملوك والوزراء في عصره، فقد كان أولو الامر يومئذ يقدّرون قيمته السّياسيّة والفكريّة حقّ قدرها ويشعرون قويّ الشعور بأنّ له شخصية فذّة. ولذلك تفهم حرْصهم على جلبه الى بلاطاتهم. فهذا القائم بالدولة بعد السلطان ابي عنان قد بادر باطلاق سراحه بعد سجنه وأعاده الى منصبه في الدولة وكان ابن خلدون كاتب سرّ السلطان المريني وصاحب ديوان الإنشاء والمراسم والقابض على خطّة المظالم. ولعلّ تخوّفَ القائم بالدّولة المريني الوزير عمر بن عبد الله من دخول ابن خلدون في خدمة منافس سياسيّ يستفيد بنصائحه وخبرته السياسية حدّا به الى اطلاق سراحه وإعادته الى منصبه ومنعه من الانصراف الى بلده. ويتّضحُ لك ذلك في موطن آخر من "التعريف" حيث يقــول : فطلبــت الـــرحلة الى بلدي بإفريقية وكان بنو عبد الواد قد راجعوا ملكهم بتلمسان والمغرب الاوسط فمنعني (السلطان المريني أبو عنان) من ذلك (خشية) أن يغتبط أبو حمّو صاحب تلمسان بمكاني فأقيم عنده.(8)

وكانت الحياة لا تطاق يومئذ من جراء الحروب المشتعلة في شمال افريقية وتقلب الاحول السياسية فيها. فبعد قضاء ثماني سنين في المغرب الاقصى قرر ابن خلدون زيارة مملكة غرناطة وكان قد تعرّف على ملكها محمد الخامس ابن الاحمر بفاس. ولعل مبرّر هذه الرحلة خيبتهفي نيل مراميه السياسية بإفريقية وتلمسان وفاس، وسَجّلَ صاحبنا رحلته الى ابن الاحمر فذكر أنه نزل بجبل طارق ومن هناك راسل السلطان ووزيره لسان الدين ابن الخطيب يعلمهما بقدومه فرحّبا به. فاقرأ قوله من كتاب "التّعريف" : "ثم أصبحت من الغد قادما على البلد وذلك ثامن ربيع الاول عام أربعة وستين (وسبعمائة) وقد اهتزّ السلطان لقدومي وهيأ المنزل من قصوره بنُرُشه وماعُونه وأركب خاصته للقائي تحفيا وبرا ومجازاة بالحسنى، ثم دخلت عليه فقابلني بما يناسب ذلك"(9) فهذا يدلّ على أن ابن خلدون حُظي في عصره بمكانة

(7) التعــريف ص 68.
(8) التعريف ص 77
(9) التعريف ص 84

سياسية وفكرية ممتازة وعومل معاملة الملوك والعظماء. وطال مُقام ابن خلدون بالاندلس وكُلِّف بمهمة ديبلوماسية، فقال "توماس ارفنق" في هذا الصدد فبعد سنة ونصف من وصوله الى غرناطة كان من المتوقع أن يصبح ابن خلدون سفيرا لدى "بُطره بن الفنش" (10) ووفد ابن خلدون على "بُطره" فوجد من الحظوة والإكرام ما لا يوصف؛ ولعل ملك اشبيليا "بطره" فطن الى قيمة ابن خلدون كسياسي وعالم وتلقى ارشادات عن شخصيته الفذة مما جعله يسعى في ابقائه في خدمته كما رأى ذلك "ارفنق" وسجل ابن خلدون في "تعريفه" ما حدث في سفرته الى الطاغية ملك قشتالة ودواعي سفرته فقال: "وسفرت عنه (أي عن ابن الخطيب وزير ابن الاحمر بغرناطة) سنة خمس وستين الى الطاغية ملك قشتالة يومئذ "بُطرُه بن الهُنشُه بن أذفونش لاتمام عقد الصلح ما بينه وبين ملوك العدوة... فلقيت الطاغية بإشبيلية وعاينت آثار سلفي بها وعاملني من الكرامة بما لامزيد عليه وأظهر الاعتباط بمكاني. (11)

وطلب الطاغية من ابن خلدون أن يقيم عنده ووعده مقابل مقامه بأن يَرُدّ عليه تُراث سلفه بإشبيلية إلا أنه رفض الطلب وعلل "توماس ارفنق" رفضه بما كان يمتاز به ابن خلدون من فطنة وعبقرية إذ تنبأ بما سيؤول إليه الامر في الاندلس. فاقرأ قوله: "وقد رفض فيما بعد قبول دعوة تيمورلنك بسمرقد مثلما فعل مع بطره وافتخر بذلك. وبالرغم من ان ابن خلدون كان في غربته يبحث عن عمل (بل نقول عن ولاية) فإنه تنبأ بالاخطار التي تُحدِق بمملكتي بُطره ومحمد الخامس وكان موقفه يدل دلالة واضحة على توقعه المأساة التي ستحل بإسبانيا الاسلامية وشبه الجزيرة...(12) وما كان ابن خلدون في رأيي ليرضى بالدخول في خدمة طاغية نصراني يتربص الفرص لاكتساح ما تبقى من مُلك المسلمين بالاندلس مهما كانت الظروف.

3) ابن خلدون وابن الخطيب:

وعاد ابن خلدون من سفرته هذه الى غرناطة والتقى بالوزير ابن الخطيب ولا بد من الالتفاتة الى شخصيته الفذة التي تشبه مشابهة كبيرة شخصية ابن

(10) الفكر ص 73 "توماس ارفنق" بطره القاسي وابن خلدون — ترجمة محمد شقشوق — مارس 1961

(11) التعريف ص 84

(12) أنظر فصل "ارفنق... الفكر عدد مارس 1961 ص 79

خلدون. فالنّاظر في حياة الرجلين يجد بينهما شبها كبيرا ويلاحظ أن عالمنا التونسي يورد رسائل لابن الخطيب في كتاب ليس في الحقيقة مقامَ هذه الرسائل فهي لاتفيدنا أحيانا كبير إفادة في ترجمة ابن خلدون والتعريف به وبرحلته. وإنّ ابن خلدون أوّل من شَعُرَ بالاقحام، فاقرأ — لتتيقن من ذلك قوله في "التعريف" : "فرأيت أن أثبته هنا (يريد كتاب ابن الخطيب الى ابن الاحمر) وإنْ لم يكن من غرض التاليف لغرابته ونهايته في الجودة وأن مثلَهُ لايُهْمَلُ من مثل هذا الكتاب..."(13) فقد كان يرى بينه وبين ابن الخطيب قرابة وتشابُها، إذ شذ ابن الخطيب عن عصره كما شذ عنه ابن خلدون، وكلاهما شعر بشذوذه وعبقريته. فهاهو ابن الخطيب المغامر السياسي يقول لابن الاحمر بعد فراره من غرناطة والتجائه الى المغرب لتوجّس الخيفة منه بعد فشل مؤامرته الرامية الى قلب ملك بني الاحمر : "فإنما كان ابن الخطيب بوطنكم سحابة رحمة نزلت ثم أقشعت وتركت الازاهر تفوح والمحاسن تلوح" (14) ويفيدنا "توماس ارفنق" مرة أخرى بمعلومات هامة عن ابن الخطيب ويعترف بأن له شخصية فذّة في قوله : "فإن هذه الشخصية الفذة كانت تقريبا آخر المفكرين العظماء من عرب اسبانيا وهي الجوهرة اللامعة في بلاط غرناطة، كان شعلة ذكاء..."(15) ومن هذا الوجه يشبه علامتنا التونسي إلاّ أنّ ذكاء ابن خلدون يفوق بدون مغالاة ذكاء ابن الخطيب إذ تفطن الى ما لم يتفطن اليه العلاّمة الاندلسي في ميادين التاريخ والسياسة وعلم الاجتماع، ولا شك في أنّ هذا التفوّق هو الذي حدَا بمحمد الخامس ابن الاحمر الى تمتين الروابط بينه وبين ابن خلدون وما كان ابن الخطيب راضيا عن هذه الصداقة المتينة بل كان يدبّر لابن خلدون المكائد فاضطرّ علامتنا التونسي الى مغادرة الاندلس والالتجاء الى بجاية حيث دخل في خدمة الامراء الحفصيين.

ويعلق "ارفنق" تعليقا مفيدا على الفترة الثالثة من حياة ابن خلدون أي فترة العزلة العلمية وترك السياسة إذا اعتبرنا حياته منقسمة الى اربع مراحل مرحلة الشباب والدراسة، ومرحلة المغامر السياسي، ومرحلة العزلة واستنباط العلم الجديد، ومرحلة الشيخوخة واستقراره بمصر.

ويقول "ارفنق" عن الفترة الثالثة من حياة ابن خلدون، بعد رجوع

---

(13) التعريف ص 147

(14) التعريف ص 151

(15) المصدر السابق

صاحبنا ثانية الى الاندلس : فقد عاد بعد عشر سنوات أي سنة 1374 م الموافق لسنة 766 هجرية... بيد أن ابن خلدون الذي قارب الخمسين من عمره أصبح يضجر من السياسة ومكائدها وصرّح أنّه يريد الدراسة فقط.....(16) وتَابع ابن خلدون "سيره الى تلمسان بالجزائر حيث لحقت به أسرته مرة أخرى وذلك لانّ المرينيِّين خَافُوا من ذكائه وعبقريته. وهناك بقلعة بني سلامـة بدأ دور العالم في حياة ابن خلدون"(17)

4) التفكير في نشأة الدول واضمحلالها.

ولم يعلِّل "توماس ارفنق" انعكاف ابن خلدون المفاجيء على تصنيف مقدمته، ولقد حاول الاستاذ الدشراوي تعليل عزلة ابن خلدون العلمية بما ناله من خيبة في ميدان السياسة فقال : "وتأسّى لما ناله من الاستنقاص والحرمان مع ما في نفسه من قوّة الموهبة وعلوّ الهمة وما كان يستحقه من سؤدد المنزلة ورفيع الشأن، فانكبّ على الانصاف لنفسه وعرّف بشخصه..."(18) ويضيف قوله : "وثأر ابن خلدون لنفسه من ذل الزمن وغيّ المعاصرين فأنشأ للخلف انشاء بديعا وخلق خلقا فكريا خلده على ممرّ الاجيال".

فكيف وصل ابن خلدون الى استنباط علمه الجديد ؟ إنه وصل الى ما وصل اليه بعد النظر في التاريخ نظرة شاملة وبعد التفكير الطويل في نشأة الدول واضمحلالها في عصره خاصة وفي تاريخ البربر عامة. والدليل على ذلك أنه لم يختم "تعريفه" بنظريته في الملك عَفْوا ؛ فالاقربُ من الظنّ أنه استنبط نظريته بعد التفكير في حياته قبل كل شيء. ولا أدل على ذلك من الفصل الوارد في كتاب "التعريف" فقد قدّمه كما يلي : "فتنة النّاصريّ وسياقة الخبر عنها بعد تقديم كلام في أحوال الدول يليق بهذا الموضع، ويطلعك على أسرار في تنقل أحوال الدول بالتدريج الى الضخامة والاستيلاء ثم الى الضعف والاضمحلال والله بالغ أمره"(19) فهاهنا تبدو قدرة ابن خلدون على النظر الى الحوادث التاريخية نظرة شاملة وتكاد تنحصر طرافته وعبقريته في قيامه بعملية ادماج وجمع (synthèse) في العلوم التي عرفها أهل عصره وخاصة في علم التاريخ.

(16) الفكـر ص 80
(17) أنظر مقال الدشراوي في مجلة الفكر العدد المذكور.
(18) المقـال السابـق
(19) التعريف ص 314

5) مظاهر عبقريته :

تظهر عبقرية ابن خلدون في شذوذ "المقدمة" عن كتب العربية في مواضيعها وأساليبها. فقد جدد فنّ التاريخ تجديدا مطلقا وتعدّى مرحلة التاريخ الى التفقه في التاريخ أو فلسفة التاريخ، ثمّ ابتكر من فلسفة التاريخ نظرياته في "العمران البشري. وتعرّض الباحثون الى هذين الناحيتين من عبقرية المنكّر فكفونا مؤونة البحث(20).

وقد بيَّن "برانشفيك" في فصل عقده عن ابن خلدون(21) أن مقدّمته صرخة صرخها عبقرينا لإعلان انهدام صرح المعرفة فيما سبق وانهدام صرح التاريخ كما فهمه السابق. على أنّ ابن خلدون لم يقف عند هذا الحدّ إذ حمل رسالة جديدة فبشر بنور المعرفة التاريخية الجديدة المعتمدة على المنهاج العلميّ الصحيح وهو التزام قواعد النقد السليم وفهم الحوادث التاريخية فهما جيدا وتحليلها تحليلا علميا مع ابراز عللها، وضبط قوانين العمران البشري فيها هو يعرف علم التاريخ في "المقدمة بقوله : "إنّه في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الايام والدول... وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق"(22) ويقول عن العلم الجديد الذى استنبطه في المقدمة" : "وأبديت فيه لأوّلية الدّول والعمران عللا وأسبابا... وشرحت فيه من أحوال العمران والتمدّن وما يعرض في الاجتماع الانساني من العوارض الذّاتية ما يمتّعك بعلل الكوائن وأسبابها (ص 4)".

وأطرف ما فطن اليه ابن خلدون في عصره ضبطه القوانين الاقتصاديّة والسياسية والاجتماعية الكبرى. ولم يتعصب في ضبطها لفكرة أو لعقيدة لذلك استطاع "ايف لاكوست" مثلا أن يجعل منه "ماركسيا" قبل ظهور "كارل ماركس"(23) فابن خلدون ينظر في الاقتصاد نظرة مادية تاريخيّة

---

(20) أنظر مقال "فرحات الدشراوي "(عبقرية ابن خلدون) الفكر عدد مارس 1961

وانظر : Gaston Bouthoul «Ibn Khaldoun, sa philosophie sociale»

وانظر : Ives Lacoste «La grande œuvre d'Ibn Khaldoun» in Revue La Pensée n°69 - septembre - octobre 1956

(21) أنظر : Robert Brunschvig «La Berberie orientale sous les hafsides» T 2 p 385 - 393

(22) المقدّمة ص 3 — 4

(23) أنظر دراسة "ايف لاكوست"

فيرى أنه مادة (24) ينتج عن نموها نمو "العمران البشري" (Le Peuplement humain) فالاقتصاد السليم مادة العمران وأساسه. فاقرأ – لمزيد تيقن من ذلك قول ابن خلدون : "واعلم أنه إذا فقدت الاعمال أو قلت بانتقاص العمران تأذن الله برفع الكسب ألا ترى الى الامصار القليلة الساكن كيف يقل الرزق والكسب فيها أو يفقد لقلة الاعمال الإنسانية وكذلك الامصار التي يكون عمرانها أكثر يكون أهلها أوسع أحوالا وأشد رفاهية كما قدمناه قبل ومن هذا الباب تقول العامة في البلاد إذا تناقص عمرانها إنها قد ذهب رزقها". (25) فلكي لا يقع تصدع في العمران والملك ينبغي السهر على استقامة الاقتصاد بتنشيط المعاملات ورفع الانتاج حتى يصبح سادا لحاجيات البشر المتضخم عدده يوما بعد يوم. فاقرأ قوله: "والعمران ووفوره ونفاق أسواقه إنما هو بالاعمال وسعي الناس في الاعمال والمكاسب ذاهبين وجائين فإذا قعد الناس عن المعاش وانقبضت أيديهم عن المكاسب كسدت أسواق العمران وانتقضت الاحوال وابذعر الناس في الآفاق من غير تلك الإيالة في طلب الرزق فيما خرج عن نطاقها فخف ساكن القطر وخلت دياره وخرجت أمصاره واختل باختلاله حال الدولة والسلطان لما أنها صورة للعمران تفسد بفساد مادتها ضرورة" (26) ويرى أن صاحب الدولة هو المسؤول الاول عن استقامة الاقتصاد الذي به يتم العمران وأنه لاسبيل الى العمارة إلا بالعدل. فإن "عدوان السلطان على الناس في أموالهم وحرمهم ودمائهم وأسرارهم وأعراضهم يفضي الى الخلل والفساد دفعة وتنتقض الدولة سريعا بما ينشأ عنه من الهرج المفضي الى الانتقاض(27).
ويبدو جليا أن نظرته في العمران البشري نظرة أخلاقية دينية إذ يدافع عن القيم الإنسانية ولا ينادي بضرورة تحديد النسل كما نادى بذلك "مالتوس" (Malthus) كي لا ينتقض العمران البشري باختلال التوازن الضروري بين عدد السكان المتزايد يوما بعد يوم والاقتصاد. وتلك هي مشكلة المشاكل في المجتمعات البشرية(28) وقد أكب ابن خلدون على دراسة هذه المشكلة

(24) المقدمة ص 288
(25) المقدمة ص 382
(26) المقدمة ص 287
(27) المقدمة ص 290
(28) أنظر : «Le Peuplement Humain» par Joseph Vialatoux Ed. ouvrière, Paris 1959

في عصره وأن ما أبداه فيها من آراء يُبشر بالماركسية أكثر مما يبشر بالمالتزيونية العصرية. فلذلك استطاع "ايف لاكوست"(29) أن يؤول نظرياته الاقتصادية والعمرانية تأويلا ماركسيا.

ولقائل أن يقول بعد هذا إن كثيرا مما نستطرفه عند ابن خلدون نجده عند القدامى كابن الاثير في "الكامل في التاريخ" والمسعودي في "مروج الذهب" وغيرهما. فكثيرا ما يستشهد بأقوال "المسعودي" مثلا لتدعيم نظرياته في التاريخ أو العمران البشري. فهاهو يقول بعد أن ذكر أن الدولة "صورة للعمران تفسد بفساد مادتها ضرورة": "وانظر في ذلك ما حكاه المسعودي في أخبار الفرس عن الموبذان صاحب الدين عندهم أيام بهرام بن بهرام وما عرض به للملك في إنكار ما كان عليه من الظلم والغفلة عن عائدته على الدولة... فقال له أيها الملك إن الملك لايتم عزه إلا بالشريعة والقيام لله بطاعته والتصرف تحت أمره ونهيه ولا قوام للشريعة إلا بالملك ولا عزة للملك إلا بالرجال ولا قوام للرجال إلا بالمال ولا سبيل الى المال إلا بالعمارة ولا سبيل الى العمارة إلا بالعدل والعدل الميزان المنصوب بين الخليقة نصبه الرب..."(30).

وعثرت في "مروج الذهب" على فصل ينبىء بنظرية ابن خلدون في العصبية ودورها الفعال في قيام الدول واضمحلالها. قال بعد أن أورد قصيدا للكميت ذكر فيه مناقب النزارية ومثالب القحطانية: "ونمى يقول الكميت في النزارية واليمانية وافتخرت نزار على اليمن وافتخرت اليمن على نزار، وأدلى كل فريق بما له من المناقب وتحزب الناس وثارت العصبية في البدو والحضر فنتج بذلك أمر مروان بن محمد الجعدي (وهو آخر خلفاء بني أمية) وتعصبه لقومه من نزار على اليمن وانحرف اليمن عنه الى الدعوة العباسية وتغلغل الامر الى انتقال الدولة عن بني أمية الى بني هاشم..."(31) فكأني بالمسعودي يرى كما يرى ابن خلدون ان العصبية غايتها الملك الا ان المسعودي وغيره من المؤرخين القدامى لم ينظروا النظرة الشاملة في التاريخ ولم يتفقهوا فيه ولم يشيدوا علم التاريخ في قالب هيكل فلسفي ولم يهتدوا الى ما اهتدى اليه ابن خلدون وإن فطنوا أحيانا الى أشياء طريفة بقيت مبعثرة.

(29) أنظر دراسة "ايف لاكوست المشار اليها سابقا".

(30) المقدمة ص 287

(31) المسعودي "مروج الذهب ومعادن الجوهر" ط دار الرجاء للطبع والنشر بمصر ج 3 ص 62–161

وقد اجتنب صاحبنا في "مقدمته" أخطاء القدماء فنبذ الاباطيل والخرافات التي تشين ما كتبه المسعودي وابن الاثير وغيرهما قبله. ففي مقدمته يعتمد على العقل والتجربة ويعلن زوال التقية في العلم وزوال ما كان للدين من سيطرة على علم التاريخ فإنّ الطبريّ مؤرخ وهو الى جانب ذلك محدّث ومفسر وطغى تفسيره للقرآن على فهمه للتاريخ. أمّا ابن خلدون فإنّه فتح باب حريّة الفكر والتّخلص من قيود الجبروت الدّيني(32)، وكان الجبروت الدّيني مسيطرا قبل ظهور "المقدّمة" على الحديث وعلى الادب والتاريخ. فلذلك تبنّى المستشرقون "المقدمة" وأقبلوا على دراستها وترجمتها. ولئن كانت "المقدمة" تُخلّص الى نور العقل وتنفي الجبروت الديني، فإنّ ابن خلدون لم يفصل تماما المعرفة القَبلية الدّينية عن المعرفة العلمية المعتمدة على العقل، بل مزج في معرفته عنصرين أساسيين من أسس المعرفة البشرية هما عنصر الدين وعنصر العقل. وهذان العنصران قائمان في تفكيره معا وليسا مُتّحدين لانه لا سبيل الى توحيدهما بَلْ تضاربا أحيانا. فهو يذكر في مواطن مختلفة من "المقدمة" أنّ الشّرائع المنزّلة تحرّم على المرء دراسة العلوم العقلية. فاقرأ قوله : "لما انقرض أمر اليونان وصار للقياصرة وأخذوا بدين النّصرانيّة هجروا تلك العلوم كما تقتضيه الملل والشرائع فيها"(33) ويهاجم ابن خلدون الفلسفة بدعوى أنها تفسد الدين فيقول: "(إنّها) عارضة في العمران كثيرة في المدن وضررها في الدين كثير". على أن طرافته في الحاحه على وجوب الاعتماد في التّاريخ على العقل والتّجربة. فإنّ معجزته في إحداثه ثورة في تاريخ الفكر البشري إذ ساعده على أن يتخلص من عبودية الدّين والنّقل وإن كان فقيها. وكان من المنتظر أن يسير به غذاؤه الثقافي الدّيني الى طريق المؤرخين القدامى، لكنّ ابن خلدون عدل عن طريق الجبروت الديني في التاريخ(34). ألا تَرى أنّه ميّز بَيْنَ مَا هو دين وما هو غير دين أي ميدان العقل، وقد بيّن "تياي" (Tillet) ذلك بوضوح في فصله "تفكير ابن خلدون الفلسفي" المترجم في مجلة "الفكر"(35) فإنّ ابن خلدون أول من نادى في ميدانَيْ التّاريخ وعلم الاجتماع بوجوب تحرير العقل من عبودية الدين.

---

(32) أنظر ما كتبه برانشفيك.

(33) المقدمة ص 419

(34) أنظر ما كتبه "برانشفيك"

(35) أنظر الفكر — السنة 6 العدد 6 — مارس 1961. "تفكير ابن خلدون الفلسفي" لبيار تياي، ترجمه المرحوم فريد غازي ص 82.

على أنّ العلامة التونسي يدهشنا في "كتاب العبر" بما يحوي كتابه من أباطيل وخرافات بينما نادى باجتنابها في "المقدمة" فمن ناحيةٍ نرى في "المقدّمة" بصيرة حادة وفكرا ثاقبا، ثم نتصفح "كتاب العبر" فنجد ما يناقض ذلك كلّه أي تراكم الاخبار بدون تسلسل وربط الاسباب بالمسبِّبات. كما نجد الخرافات والاباطيل. إلاّ أن العقم مغفور له إذا سلّمنا بأنّه لا سبيل الى كتابة التاريخ الصحيح إلاّ بوثائق ثابتة. وهذه الوثائق لم تكن دائما في متناوله.

ولكنّ هذا العقم الذي أصاب في ملاحظته المستشرقون والباحثون كـ"برانشفيك" و "إيف لاكوست" وغيرهما لايوجد في القسم الذي يعتمد فيه ابن خلدون في "كتاب العبر" على خبرته الشخصية، إذ أصاب في تحليل المجتمعات البشرية التي عرَفها ولا حظ ما يجري فيها عن كثب، فأصاب في تحليل تاريخ الحفصيين وبني عبد الواد وبني مرين وملوك الطوائف. ولولا "كتاب العبر" لبقيت جوانب كبيرة من تاريخ هذه الدول مجهولة. فعذره إذن أنه طبق القواعد التي ضبطها في "المقدمة" كلما استطاع ذلك أي كلما وجد الوثائق الكافية أو اطلع على أحوال دول ومجتمعات بشرية تقلّ فيها. فلا سبيل الى مؤاخذته إذا اعترفنا بأنه لا يمكن كتابة تاريخ صحيح بدون وثائق ثابتة. وهذا ما انتبه اليه "ايف لاكوست"(36). أضف الى هذا العُذر عذرا آخر هو أن معاصري ابن خلدون أعرضوا عن المقدمة كل الاعراض وكذلك الخلف من المسلمين في عصور الجمود.

6) فما هي مكانة ابن خلدون في عصره ؟

إن الناظر في كتاب "التعريف" يرى أن أهل عصره أعرضوا كل الاعراض عن "المقدمة" فكأن الثورة التي أحدثتها كانت خطيرة عليهم. وكثر يومئذ خصوم ابن خلدون وأشهر من تصدّى لمقاومته "ابن عرفة" ممثل المالكية بتونس(37) ولئن أدبر رجال الدين والمحافظون عن مقدمته، فقد لقي ابن خلدون حفاوة كبيرة من طرف القابضين على زمام الحكم يومئذ ونخص بالذكر منهم أبا العباس السلطان الحفصي الذي أهدى إليه ابن خلدون "كتاب العبر". فاقرأ قوله : "وقد كلفني (السلطان أبو العباس) بالإكباب على تأليف

(36) أنظـر : Ives Lacoste «La Grande Œuvre d'Ibn Khaldoun in La Pensée n· 69 septembre - octobre 1956

(37) ابن خلدون "التعريف" ص 233 — 232

هذا الكتاب لتشوقه الى المعارف والاخبار واقتناء الفضائل فأكملت منه أخبار البربر، وزناته. وكتبت من أخبار الدولتين وما قبل الاسلام ما وصل اليّ منها، وأكملت منه نُسخَةَ رفعتها الى خزانته"(38) ويقول ابن خلدون عن علاقته بأبي العباس : "فأقبل عليّ واستدناني لمجالسته والنجي في خلوته ، فغص بطانته بذلك، وأفاضوا في السعايات عند السلطان فلم تنجح"(39).

7) مكانته العلمية بالنسبة الى الخلف :

فإنّ جهل المفكّرون ابن خلدون في عصره فما مكانته بالنسبة الى الخلف ؟ إنّ الخلف من المسلمين تغافلوا عن المقدمة كل التغافل لا لعجز عن ادراك ما فيها بل لأنهم اعتبروا أن العلم الذى استنبطه ابن خلدون بدعة وكلّ بدعة في نظرهم خطر على الدين. فكان ادّبارهم عن المقدمة تمسكا بالجمود وهو صفة المقلدين المحافظين. فالرأي عند ابن خلدون أن الغيرة هي التي دفعت ابن عرفة وجماعته الى مهاجمته(40) وما كانت الغيرة سببا أصلياً في هذه المعركة التي اضطرته الى مغادرة تونس والهجرة الى مصر. ولعل أحسن شاهد على عبقرية ابن خلدون وشخصيته الفذّة أنّه ظل كاللغز عند الخلف من المسلمين الى أواخر القرن التاسع عشر. لكن العرب انكبوا اليوم على دراسة "المقدمة" ونظّموا المهرجانات للاحتفال بذكرى وفاته.

أما المستشرقون والدارسون في الغرب فقد اهتموا كبير اهتمام به إذ فطن رجال الفكر في الغرب في أواخر القرن الثامن عشر وفي القرن التاسع عشر الى نفس الاحكام التي استنبطها ابن خلدون في التاريخ والعمران البشري.

وربما حدث اتفاق بين مؤرخنا وبينهم لان العلماء في الغرب كانوا يجهلون ابن خلدون قبل ظهور "دي سلان" (De Slane) الذى عرّفه بترجمة مقدّمته. فوجد الشبه بينه وبين "دوركايم" (Durkheim) و"أوقيست كونت" (A. Comte) و "ماكيافال" (Machiavel) عظيم وإن لم يعرفوا حسب ما يبدو ابن خلدون فبعد قرون ظل فيها ابن خلدون مغبونا ومجهولا متبورا اكتشفه علماء الغرب وأخرجوهُ من قبره.

لكن لا بد للباحث من أن يتساءل : هل عرَف "جان باتيست فيكو"

(38) التعريف ص 233
(39) التعريف ص 232
(40) التعريف ص 232.

مقدمة ابن خلدون ومن المعلوم أن "فيكو" أورد نظريَّة "الدوران" في الحضارة وهي نظرية عزيزة على ابن خلدون. وتبادر هذا السؤال الى ذهن « تياي » (Tilliet) فأبدى ملاحظة هامة جدا تفتح آفاقا جديدة للبحث، في قوله :

"ولربَّما كان لبعض آراء ابن خلدون في فلسفة التاريخ صدى في القرن الثامن عشر بفضل مترجمي التراجم العربية اللاتينية بمدارس "بولونيا" و"بادو" لاننا نرى فكرة "دوران الحضارة" التي رأيناها عند ابن خلدون في العلم الجديد قد ظهر بها "جان باتيست فيكو" في علمه الجديد. وأمَّا أن نعلم هل أنَّ الناس قرؤوا أو ترجموا الى اللاتينية ابن خلدون أي "سيلادون" وهو اسم ابن خلدون كما وجدته في بعض التَّراجم التي كتبت اسمه هكذا فهذا موضوع بحث آخر"(41)

فهذه الملاحظة تجعل الباحث يتساءل هل لعُلَمَاء الغَرْبِ فَضْلُ السَّبْقِ في علم "السوسيولوجيا" أم الفضلُ كلّ الفضلِ لابن خلدون. هذا ما سيُثْبِتُه البحث العلمي ونحن في انتظار ذلك.

ومهما يكن من أمر فإن علماء الغرب وخاصة المستشرقين انكبُّوا على دراسة ابن خلدون، فكأنه ليس من العرب إذ فطن له الغرب قبل أن يفطن له الشرق والغرب الاسلاميان. فقد وجد الغربيون في مقدّمته العلم المبنيّ على العقل والتجربة، وقدّروا نداءه الصَّاخب بوجوب اطلاق الفكر وتخليصه من الجبروت الدّيني، حقّ قدره

وليس من المغالاة أن نقول إنّ ابن خلدون بفضل عبقريته الفذّة ليس وليد القرن الثامن الهجري بل هو من أبناء العصر الحديث فكأنه حيّ يعيش بيننا اليوم ولن يزال حيًّا وإنْ بَلَتْ بعض آرائه، وسيظل لغزا إن لم يشحذ الباحثون بصائرهم حتى يهتدوا الى ما اهتدى اليه.

أحمد خـالد

---

(41) أنظر مقال "بيار تياي" الفكر عدد مارس 1961 ص 82.

الهـذبـاء

أقصوصة بقلم : خديجة الشتوى

خيم السكون على قريـة « الفـوار » الواقعـة على بعـد خمسين كم من « المرازيق » بأقصى الجنوب ٠

كان النسيم رطبـا ساريا بين النخيل الممتدة على جوانب القريـة التى تسكنها قبيلة « غريب » ، المتفرعة الى عروش منها « الغنائمة » و « العلاوة » و « والجرادرة » و « الفضيليين » وهـؤلاء يلقبون بأبنـاء الام « هنـدة » « بنت فضيل » ، ولية صالحة دفينة قرية « العوينة » قرب الصابرية ٠

كان « مرزوق » من عرش الفضيليين يعيش فى هاته البلدة ٠٠٠ توفى والده وهو طفل صغير لا يعرف من الحياة شيئا سوى الدعة والسرور ٠٠٠ عاش مع أمه وعلى الشرير ، فكثيرا ما يتشاجر مع « مرزوق » فيشبعه ضربا بالعصا ٠٠ أما فى الكتاب فكان لا يقدر حتى على الكلام لان سيدى « المدب » يحب « مرزوق » كثيرا لذكائه ، وفطنته ، وحفظه الجيد للقرآن ٠٠٠ ولكن « على » ابن عمه كان عكس ذلك ، عديم التربية ، ثقيـل الروح ، وأحيانا ينهض المؤدب ثـائرا ويود أن يقطعه اربـا ، اربـا لانـه سبب التشويش والضوضاء ٠٠ فزاد حقده وبغضه «لمرزوق» لانه لم ينل ما ناله من حب وتقدير من طرف المؤدب ٠٠ انه يـود أن يمحوه من الدنيـا ليبقى وحده لا منافس له ٠

٠٠٠ غادر « مرزوق » كوخه بعد رجوعه من الكتاب مضطرب الاعصاب شاردا تائها فى خيالاته وهواجسه ٠٠ خرج ليتمتع بالطبيعة الخلابة لعلها تروح عن نفسه ، فتزيل بعض همومه وتبعث فى نفسه الغبطة والسرور ٠٠ هناك بعيـدا عن الكوخ جلس تحت جذع نخلـة كثيرة « العراجين » قويـة هائلة ٠٠ وكانت الشمس تكـاد تغوص فى أعماق الافق رائعـة بأشعتها الذهبية الممزوجة بحمرة فكان لونها حالما هادئا جميلا وكانت السماء صافية الاديم سوى بعض سحابات شهباء تسير ببطء ، فتمثل أشكالا مختلفة ٠٠٠ ارسل « مرزوق » زفرات وتنهدات متوالية صادرة من أعماق ٠٠ أعماق نفسه ٠٠ وترك عينيه الواسعتين السوداوين الحالمتين ترسلان نظرات شاردة بين النخيل المتناثر فى كامل أنحاء الواحة ٠٠

لم يطق المكوث هناك طويلا ولم يجد نهاية لهاته الافكار والهواجس التى تحوم فى رأسه ٠٠٠ شتى الخواطر ٠٠ هل يقتل ابن عمه ؟ أيقتل نفسه ؟ ٠٠

أيهاجر ويبتعد عن هاته الارض بما فيها ومن فيها ؟ ٠٠ هل يقدر أن يبتعد عن أمه ٠٠ وقريته ٠٠ ؟ ٠٠
نهض متثاقلا يجر رجليه جرا بين الرمال اللينة الرطبة ويدفع نفسه بقوة للوصول الى الكوخ ولكنها تأبى ذلك ٠٠ انه يتمنى أن يتيه في هاته الصحراء الشاسعة وبين هاتيك الهضاب ، والرمال المتموجة ٠٠٠ انه لا يريد أن يرى الكوخ أبدا لانه ملجأ ابن عمه ذلك الجدار القائم بينه وبين سعادته وماذا سيفعل المسكين أمام هذا الحاجز القائم في طريقه للحياة ٠٠٠ لم يجد « مرزوق » غير الرجوع الى الكوخ ، هذا آخر ما قرره في ذلك اليوم ٠٠٠

٠٠٠ وكان الصباح ، صباحا أشرقت شمسه ساطعة فارسلت أشعتها الى داخل الكوخ حيث ينام « مرزوق » فوق « غرارة » نسجتها أمه أيام كان والده على قيد الحياة ٠٠ لذعته الشمس بحرارتها فنهض مذعورا ٠٠ ونار تتأجج في أحشائه ٠٠٠ وبعد أن تهيأ قصد الكتاب وكان يسير في الطريق ويلتفت يمنة ويسرة خوف أن يلتحق به ابن عمه « علي » فيسرع في مشيته ثم يقف ويلقي نظرة الى الوراء ٠٠ ولكن في هاته المرة رأى خيال انسان ٠٠ انسان يجري ويسرع في الجري انه « علي » الخبيث ، لقد التحق « بمرزوق » المسكين ٠٠

علي ـ مانـي قتلـك مـاعتش تمشي للكتاب ٠٠ والا مـاكش سامـع اكلامي ٠٠ اسمع انكلم فيك راني ٠٠ ارجع فيسع واقضي لك آش تحب ! ٠٠ انت ما كش أهل للعلم أنت من سراح البل والغنم ٠٠٠

مرزوق ـ يا خي العلم امحبس عليك انت والا شنو ٠٠٠

علي ـ أسكت ! ٠٠ أسكت خير ما نفهمك قدرك تو ٠٠٠

لم يسكت « مرزوق » بل أخذ يدافع عن نفسه بكامل قواه وهرب متجها نحو الكتاب ، ولكن التحق به « علي » وأخرج عصاه من تحت « برنسه » وأخذ يضربه ضربا شديدا لا رحمة ولا شفقة فيه ٠٠ وصادفت احدى الضربات ذقنه ٠٠ فأدمته وبعد عراك عنيف نهض « مرزوق » منهوك القوى ٠٠ ورجع الى أمه حزينا كئيبا ٠٠٠

وكانت « حليمة » تحمى « الطابونة » بسرعة وفجأة سمعت حثيث أقدام وراء الكوخ فرفعت رأسها بشجاعة وجرأة فرأت « مرزوق » آتيا من بعيد ٠٠ توالت دقات قلبها وأسرعت في مشيتها نحوه ٠٠٠

حليمة ـ آش بيك « مرزوق » آش عملولك اولاد الحرام ؟ ٠٠

مرزوق ـ علي ولد عمي ضربني وما خلانيش نمشي للكتاب ٠٠

حليمة ـ أصبر ما صبرك ربى يـا « مرزوق » يا ولـدى لكان بوك حى ما يجرلكش هذا ٠٠ انوصيك يا وليدى من ولد عمك راه أكبر منك وآش يقولوا الناس كيف يسمعوا بيكم متخاصمين ٠٠

داوته أمه حين وصوله الى الكـوخ وأخذه النوم من شـدة التعب والالـم وبعد أن أتمت « حليمة » تحضير الخبز أعطته قطعة وملأت له مشربا باللبن فأعاد نشاطه ٠٠٠ وحان قدوم على ٠٠٠

قام « مرزوق » يتعثر فى خطاه ليطلق سراح الشياه المربوطة وراء الكوخ ٠٠٠ ساق غنمه الى أن وصل قرب غابة « سيدى غانم » وهناك انطلقت شويهاته تأكل العشب ، وتتمرغ فوق التراب تحت رعايته ٠٠

جلس الفتى فوق ربوة عالية تطل على « دوار » قريب ٠٠٠ فمرت بخياله ذكريات الماضى القريب ذكريات الطفولة العذبة البريئة ايام كان يأتى مع بعض اولاد الجيران ليلعبوا الغميض وكان عمره اذ ذاك حوالى التاسعة ٠٠٠ ولكن لم يتذكر منهم سوى الهذباء بنت « سى عامر » كانت الهذباء تعيش حياة هادئة سعيدة تحت ظل والديها وقد كانت طفلة ، صغيرة جميلة مهذبة تحب اللعب والمرح ٠٠ فتخرج مع اولاد الجيران للعب ولا تعود الى البيت الا بعد وقت طويل ٠٠٠ ولكن سعادتها لم تدم ماتت أمها وتركتها كطائر فقد جناحيه تعانى الذل والتعاسة من جور زوجة أبيها ٠٠٠ كانت تسجنها فى البيت وتمنعها من اللعب مع الاطفال ٠٠٠

مرت الايام متوالية وكبرت « الهذباء » وصارت فتاة كاعبا ممشوقة القوام سمراء ، جميلة بعينيها الشهلاوين الواسعتين يشع منهما بريق ينم عن ذكاء وفطنة ، وقد انسدلت ظفائرها سوداء كالظلام على كتفيها ٠٠ فزادتها روعة وجمالا ، فنالت الاعجاب بجمالها ودماثة أخلاقها ٠٠٠ ولكن معاملة زوجة أبيها كانت قاسية أشد القساوة ، تأمرها بملء الماء عشرات المرات فى اليوم من العين القريبة وتتركها تقوم باعمال المنزل وحدها ٠٠٠ ثقل عبء الحياة على كاهل « الهذباء » وصارت تعيش فى حيرة تفكـر فى مصيرها مـع هاتـه القاسية ٠٠٠

أفاق « مرزوق » من غيبوبته وقد علت وجهه ابتسامة هادئة فرحا بطفولته المرحة ٠٠ وارسل زفرة حارة أسفا لفواتها ومرورها بدون أن يشعر ٠٠٠ ونظـر متأملا بيوت الشعر المتفرقة هنـا وهناك ٠٠ اين تسكن الهذبـاء يا ترى ؟ ٠٠ أفى احدى هاته البيوت أم بعيدا ؟ ٠٠٠ ليتنى ألتقـى بهـا فتقاسمنى همومى وتخفف من آلامى كما أعهدها لينة الطبع فاضلة الاخلاق ٠٠٠

انتفض « مرزوق » ونهض مسرعا لان شويهاته قد بعدت عنه ٠٠٠ أخذ عصـاه واتجـه نحـو كوخـه مطرقـا مفكرا فى شتى أمـوره ٠٠٠٠

ووصل مع غروب الشمس فوجد أمه تشعل المصباح لتضعه فى ركن الكوخ ، فربط الشويهات فى « القريشة » ثم تعشى مع أمه تحت نور القمر وقد أسدل الظلام أجنحته على الكون ... سكون أخرس يملأ الارجاء فلا يسمع فى بعض الاحيان سوى صوت الرياح يتخلل الاغصان ، وحثيث أقدام المارة يبتعد شيئا فشيئا الى أن يتلاشى .. ويتلاشى ...

وانقضى الليل وأتى فجر جديد .. تأخر « مرزوق » فى نومه وبعد وقت طويل ذهب الى الكتاب .. ولم يعترضه احد .. جلس حيث أنتهى به المجلس .. ولم يره على الذى يجلس فى الصف الاول ... وكان التلاميذ ممسكين بألواحهم القرآنية منهمكين فى السرد ، وقد جلس المؤدب وسطهم فكأنه أمير فوق عرشه وبيده عصاه الطويلة يهز بها مرة بعد أخرى على رأس أحد الاولاد ليفيق من غفوته أو ليصلح غلطته ...

وأنتهى الوقت سريعا وخرج « مرزوق » يجرى ... ويجرى بكامل قواه وذهب « على » مع أصدقائه يتجول خارج الكتاب قرب الواحات القريبة من « الفوار » ...

وصل « مرزوق » كوخه منهوك القوى والحزن يملأ أعماق نفسه ... لقد سئم هاته الحياة المضطربة وهذا الجو المكفهر وقرر ان يتخلص منهما .. وبأى صفة كانت ... أفكار شتى تراوده ... واخيرا وجد الحل لجميع مشاكله عندما وضع يده تحت ذقنه يتحسس أثر الجرح ... فتذكر ذلك اليوم عندما ضربه « على » بعصاه ... فأدماه .. وأحس بلهيب نار تشتعل فى كيانه لا .. ! لا .. ! سيكافح ويتحمل جميع المشاق لا لشىء سوى العلم الذى من اجله تحمل الاهانة والضرب والخصام ... فجمع لوازمه للسفر وأخذ بعض الكتب ليدرسها فى عامه الاول « كمتن ابن عاشر » فى الفقه و « متن الاجرومية » فى النحو ، وكانت هاته المتون تدرس بامعان فى زمانه ، وقد حرضته أمه على ان يحمل معه بعض الزاد لمدة السفر ...

... أفاق « مرزوق » على صوت حمار « عم مبروك » أمام الكوخ ... ان « عم مبروك » يذهب كل يوم « خميس » الى سوق « المرازيق » لجلب بعض حاجياته ... ودع ، امه دامع العينين واجما ، مذهولا ... سار الحمار فى طريقه لا يلوى على شىء ... وما زالت عينا « مرزوق » تتلفتان الى شبح أمه يتضاءل شيئا فشيئا الى أن يغطيه ضباب الفجر ... القى نظرة أخيرة على قريته الحبيبة وهو يبتعد ... ويبتعد ...

كانت الشمس تميل الى الغروب بأشعتها المنبعثة فى الافق حمراء كلهيب نار متأججة ، عندما وصلا الى « دوز » ذهب عم « مبروك » الى السوق وأخذ « مرزوق » يبحث عن سيارة اجرة تحمله الى « قابس » ارسل زفرة وهو يعتدل فى جلسته فى المقعد الامامى وأخذت السيارة تطوى الارض طيا ...

خيم صمت عميق فلا يسمع سوى هدير محرك السيارة ، و «مرزوق» ينظر من النافذة الى الاراضى الشاسعة والنخيل الممتد على الجانبين وكأن أشباح المستقبل تتراءى له فى الافق البعيد ...

وقفت السيارة أمام نزل محطة « قابس » وبسط السائق يده يطلب أجرته .. ثم أطبقها على بضعة دريهمات ...

تحقق مرزوق من ابتعاده عن قريته عندما ذهبت السيارة فى حالها .. وكأنها هى السبب فى ذلك .. وقف مفكرا فوق الرصيف ثم أتجه نحو الفرع الزيتونى .. وهناك استقبله المدير بكامل الفرح والسرور لما كان يمتاز به أبناء القرى من جد وذكاء ، وقوة عزيمة لمواصلة تعلمهم بالمدن خارج قراهم ...

تحصل على اعانة من الكلية ككل تلميذ فقير فزاده ذلك نشاطا ومثابرة .. اندمج فى جو التلمذة بكل احساساته وجوارحه ونال الحب والتقدير من كل الاصدقاء .. وكالعادة تجمع الساحة وقت الراحة كل التلاميذ من كل الطبقات .. وكثيرا ما يقع نقاش حاد بينهم حول استاذ الرياضيات وأسلوبه فى حل المشاكل ، وأستاذ الفقه الذى يكثر من الحديث التافه وقت الدرس ... فيشتد احمرار وجه « مرزوق » حينذاك ويأخذ فى الدفاع عن أستاذه ويتعصب له .. لانه يحبه ... ويحبه كثيرا لما يمتاز به من أخلاق كريمة ، ومعاشرة لينة وفضائل جبلية ... اشتدت العلاقة بينه وبين أستاذه ... عاش الامسيات الشيقة فى منزل أستاذه يتجاذب معه أطراف الحديث فى كل المواضيع وحتى عن حياته الخاصة ... عظم شأن « مرزوق » بين أساتذته لنشاطه ومثابرته على العمل ...

مرت الاعوام متوالية سريعة وكان النجاح حليفه فى كل اعماله ، وبدأ يشعر بالسعادة ... وبالامل ...

لقد كانت زيارات الاهل لابنائهم فى المدرسة لها تأثير عميق فى نفسه ... كل شىء يذكره أمه ... وقريته وشويهاته ويتملكه الحنين اليها ... وما أسعد يوم رجوعه اليها كانت الطبيعة فى أبهى حللها شمس مشرقة .. سماء صافية الاديم ... وطال العناق حين لاقت عيناه عينى أمه الحبيبة ... واغرورقت عيونهما بدموع الفرح .. وما أشد شوق مرزوق لامه .. لحنانها .. ولعطفها .. كان يحدثها عن كل شىء .. كل ما مر به من أحداث .. وصعوبات وأفراح .. وفى الصباح كان « مرزوق » يسير فى الطريق المنحدرة المؤدية الى بعض الدكاكين التى تجمع شيوخ الحى يتسامرون فى كل مساء ويتحدثون عن كل الاخبار والاحداث القديمة منها والحديثة ...

كانت علامات الاستفهام تعلو وجوههم فى ذلك الصباح .. خبر سىء تتقاذفه الافواه ... دنا « مرزوق » من المجلس وبعد سلام طويل وسؤال وجواب عما شاهده فى حياة المدن قال أحدهم :

ـ اسمعت يا « مرزوق » بالغريبة ؟ ..

ـ لا ما أسمعت بشيء ؟ .. آش ثم ياخي ؟ ..

ـ ماهي « الهذباء » بنت سي عامر أختفت ما بين الليل والنهار ... ؟ علت وجه « مرزوق » دهشة كبرى وكان اسم « الهذباء » له وقع كبير في نفسه ورفع عينيه متطلعا الى الافـاق البعيدة بنظرة شاردة ... قـال أحد أقربائها وكان من بين الجالسين :

ـ هذا عار وما بعده عار بنتنا تهرب ما بين ايدينا احنا ما عندناش بنات تهرب ... أحنا العرب الى نحافظوا على عرضنا وشرفنا اتجينا طفلة اطيحلنا قيمتنا بين العروش والقبائل ... ! ..

فقال الاخر :

ـ بالسيف باش تهرب بعد هاك العركة بينها وبين عيلة بوها ...

وقال أحدهم :

ـ اسمعناها أمس اتعيط وتبكي .. والله مسكينة بنية متربية وعاقلة ...

طـال النقاش ولم ينتـه الى حـل مرضي .. كل يختلق أسبابا لفـرار « الهذباء » .. وفي الحقيقة لقد ذهبت لزيارة امها .. بكت طويـلا فوق قبرها .. ولم ترجع الى المنزل الا بعد وقت طويل ولاجل هذا وقعت في شجار عنيف مع زوجة أبيها ... لم تطق حياة التعاسة والشقاء مع هاته الشريرة الشمطاء ، وفرت بدون أن تشعر لتتخلص من هذا العذاب اللانهائي... لم تختف مع عشيق كما يزعم البعض .. ولكن لهدف أسمى لتبـدأ حيـاة أفضل ، .. وأسعد ..

... وكانت الخلجات شتى عندما رجع «مرزوق» الى أمه ، اذ هاته الحادثة أثارته وجعلته يفكر .. ويفكر بدون نهاية ..

لم يبق طويلا في حيه ورجع الى قابس .. الى معهده .. واصدقائه .. وأساتذته .. وبالاخص أبيه الروحي .. لقد استقبله أستاذه في منزلـه بكامل الفرح والابتهاج .. وفي أثناء السهرة لاحظ على محيا « مرزوق » الحيرة ... والتفكير ... وكانت الحيرة الكبرى عندما نادى أستاذه

ـ الهذباء ! ..

ـ يا الهذباء ! ...

ـ نعـم ..

ـ قهيوة عيش بنتي .. !

وأرسل الاستاذ زفرة حارة وتنهدات عميقة شفقا على حال « الهذباء » ٠٠٠

ونظر الى « مرزوق » فاذا بـه فى غيبوبة وعلامات الاستغراب تلوح على وجهه ٠٠٠ انـه يريد أن يتكلم ٠٠ أن يسأل عن قصة هاتـه الفتاة ٠٠٠ هل هى هذباء « الفوار » يا ترى ٠٠ ؟ ٠٠ ولكن لم أتت الى هنا الى هذا المنزل بالذات ؟ ٠٠٠ ان هذا الاسم لا يعرفه أهل المدن كمدينة « قابس » ٠٠٠ ولكن ٠٠ ولكن ٠٠ من تكون هاته الهذباء ٠٠٠ ؟ انه يحب هذا الاسم من أمد بعيد ٠٠ يحبه من كل قلبه ووجدانه ان له مأساة مثله ٠٠٠

٠٠٠ وفجأة دخلت الهذباء تحمل فنجانى القهوة فتلاقت النظرات وتوالت دقات قلبها ٠٠٠

حقـا انهـا تشبه « الهذبـاء » تماما ٠٠٠ نفس الملامـح والنظرات ٠٠ أواه أهذبـائى أنا أم هذباء غيرى ؟ ٠٠ ولكن ما لهـا تنظر الى هكـذا كأنها تعرفنى ٠٠٠ انها تود أن تكلمنى ٠٠ أن تسألنى من اين أتيت ؟ والى أين أذهب ٠٠ ؟ ٠

٠٠٠ وأخيرا علم « مرزوق » بكل ما يتعلق « بالهذباء » قص عليه ذلك أستاذه ابراهيم ٠٠٠

كانت والدتها من فتيات المدن جمعها القدر مع شاب من شبان « الفوار » عاشت معه هناك حياة هادئة ٠٠ الى أن وافاها الاجل ٠٠ ولم تتحمل الهذباء حياة الذل ففرت الى خالها الاستاذ «ابراهيم» فرت من العذاب وأتته لعلهـا تجد سلواها وسعادتها ٠٠ وحقا لم تجد الا المعاملة الحسنة واللطف من طرف زوجته ٠٠٠ فازداد حب « مرزوق » لها وتفانى فى حبها حبا شرد فكره ٠٠ ليس له فى دنياه غير « الهذباء » ، « الهذباء » بنت الواحة ٠٠ والغدير ٠٠ « الهذباء » الجميلة السمراء ٠٠٠٠

ومرت الايـام كلمح البصر ٠٠ ونجـح « مرزوق » فى جميع امتحاناته فغمرت قلبه الفرحة الكبرى ٠٠ فرحة النجاح ٠٠ وما أعظمها من فرحة ٠٠ لم يعد هناك بون شاسع بينه وبين سعادته الحقة ٠٠ بين هدفه المنشود ٠٠

خديجـة الشتـوى

ظـــــلال واضـــــواء

شعر : عبد العزيز قاسم

روضة لم اجد سبيلا اليها   وهي مني وحيث سرت ، حولي
ريشة الشمس فى الثرى رسمتها   وهي عنها وعن سناها تولى
لست أدرى من منهما يحتمى بى   طائر الشمس ام سحابة ظلى
بين هذا وتلك فى كل يوم   مأرب فيه حار علمى وجهلى

∴

قد مللت ابتغاء ما لست ادرى   فيواصل بى الغموض الطوافا
ترقب الافق مقلتاى كأنى   أترجى من السماء هتافا
املا الروض من طويل انتظارى   فهو يقفر ساحة وضفافا
والغروب البطىء ملتهب الاجفان مثلى لا يستطيع انصرافا

∴

وارانى اجر فى القفر ظلا   شد كالقيد فى التراب وثاقى
ليس لى فى النهار منه ملاذ   لم يفدنى تمهلى او سباقى
واذا اقبل الدجى ضاع فيه   غائر الوجه كالشكوك البواقى
انا اسعى الى التخلص منه   واسارى لديه بعض انعتاقى

∴

قد تسلقت فى سبات الليالى   شاهقا من هواجسى وشجونى
ودوار الذرى يلف جبينى   وسهاد القرون ملء جفونى
وبهدبى طفقت أطرق بابا   احكمت غلقه الدياجر دونى
المفاتيح فى يدى قاصرات   وخفايا الدجى تعرى ظنونى

∴

وبظل الاحزان طال جلوسى   ساهما من ثمارها أتملى
باقة من خواطرى تتثنى   وعناقيد ذكريات تدلى
ساد فيها السكون الا نشيد   لا تعيه الآذان لحنا وقولا
أين أين المفر من وهمى الباطن يجتاحنى فروعا واصلا

∴

موطن للعقيم من نزواتى   يا صراعا أخفيه حينا وابدى
فيك اودعت يا « أنا » كل حبى   غير أنى انثنيت اودع حقدى

عاطفات سدى خبرت مداها   ونزاع قد خضته ، ليس يجدى
فانا اليوم نازع منك نفسى   سائر فى مسالك العمر وحدى

∴

نسمات الربيع والصيف ذابت   فى رياح الشتاء تنهب راسى
يا بقايا الفصول تأوى اليه   لم يعد فيه من مكان لانس
السدود التى تقى ذكرياتى   تتداعى مع الخريف وتمسى
ورقات صفراء تنهش منه   عقبيه ايان يمضى ويرسى

∴

وتأملت فجاة فاذا بى   ذاهل ههنا لفقد آنذهالى
قد شفانى بالرغم منى دواء   اى داء اشد منه عضال
مدهشات من الرؤى موحيات   لم تحرك قريحتى وخيالى
اقرضينى من الصبابة وجدا   عارما من ضياعه ساء حالى

∴

وعلى نهر « نرجس » فى مياه السحر غاصت اصابعى فى اضطراب
افلت الحاضر الذى امسكته   وتوارت رسومه فى شرابى
ومياه الزمان ترقص حولى   فى مجار عكسية الانسياب
نبعها من مجاهل الغد ينصب بماضى الايام اى انصباب

∴

تتلاشى يومية العمر دوما   ورقات ربيعها غير آت
تتوالى الفصول الا خريف   مستمر بنا اليف الحياة
فى ثنايا النسيان جردت ذاتى   من بقايا الرؤى ومن ذكرياتى
غير انى ما زلت اذكر انى   فى ثنايا النسيان جردت ذاتى

∴

عتبات الغروب موعد حب   تلتقى عنده القلوب الشقيقه
المواثيق والعهود القدامى   همسات تبادلتها مشوقه
كان منها تجاوب فرض الصمت عليها والصمت كبت الحقيقة
ويموت الغرام اى هلال   صار بدرا وما أضاع شروقه ؟

∴

فى انعزال على حدود الامانى   قد وقاه المكان شر الزمان
وعلى غير موعد ، ذات يوم   يلتقى عاشقان مغتربان
فى حوار ان شئت فهو جفاء   وهو ان شئت صبوة وتدان
مبهم كالغرام باق كذكرى   نسيتها محاصد النسيان

عبد العزيز قاسم

من آفاق الفكر

التاريخ وفلسفته في نظر العلامة طوينبي Toynbee

بقلم : ابو الوليد

من المعلوم ان علامتنا التونسى الفيلسوف المؤرخ أبا زيد عبد الرحمان ابن خلدون قد كان فى طليعة اولئك الذين لم يريدوا أن يقتصروا على دراسة التاريخ كسلسلة من الاحداث والكوارث المتعاقبة على مسرح الزمن فى غير ما استنباط نواميس معقولة تربطها وتفسرها تفسيرا منطقيا شاملا شافيا يوحد اشتاتها ويلقى شبه الضوء الكاشف على مغزاها وطبيعة كيانها ومنحى سيرها وجريانها • والحق أن ابن خلدون هو أول من جعل من العمران البشرى موضوعا لبحوث التاريخ • وهو بهذا الاعتبار اول من عمد الى ايضاح مفهوم الحضارات الانسانية ووضع الاسس الاولى للدراسات الاجتماعية على اختلافها • ولاشك أن الحقبة التاريخية التى عاشها علامتنا كانت تقتضى قيام هذا الصنف من بحوث عامة شاملة تكون بمثابة استخلاص العبرة والدرس والخلاصة الفكرية من هيكل حضارة جليلة تتابعت مدى ثمانية قرون وأتت أكلها فى مختلف الميادين لكنها قد كادت ساعتئذ أى فى أواسط القرن الثامن للهجرة ان تستنفد امكانياتها بل اوشكت أن تشرف على التضعضع والانهيار • ولقد كان العلامة التونسى بالفعل ، وهو من جعل دراساته القيمة المستخلصة أحكامها الصارمة من مشاهدة الاحداث الانسانية عبر الاجيال مرتكزة على الاستقراء والاستنتاج والقياس العقلى ـ كان ابن خلدون بعض الاونة شبه المتحسس لما سيأتى بعده من الاحداث وبالخصوص للانقلابات الهائلة التى عرفتها الانسانية خلال القرن التاسع الهجرى والخامس عشر المسيحى ، اذ ينتقل زمام الامر نهائيا من يد الاسلام الى الدول المسيحية الغربية ، وتنتهى مرحلة القرون الوسطى كى تبتدى الحقبة التى نعيشها من التاريخ •

على كل حال فالى ابن خلدون يرجع الفضل فى فلسفة تلك الحقبة المنصرمة التى انقضت على عهده لدول الاسلام وحضارة الاسلام • ولكنها هو الفكر الغربى اليوم ينتج ويبرز لنا أمثال هؤلاء المتعمقين المتفلسفين فى شؤون التاريخ، والباحثين على غرار ابن خلدون ، على النواميس الجوهرية التى تسير التاريخ وتهيمن على تطور المجتمع الانسانى • ولقد بدأ بروز هذا الصنف من المؤرخين الفلاسفة ابتداء من القرن الثامن عشر المسيحى • ، اذ نشأ خلاله فيغو Vico الطليانى ومنتسكيو Montesquieu الفرنسى • لكن الذى يهمنا هو استعراض آراء آخرهم عهدا واقربهم منا زمنا • فلا مراء ان الحضارة الغربية قد اجتازت أشواطا عملاقية خلال القرنين الاخيرين حتى أصبحت

اليوم عالمية باتم معنى الكلمة ، بحيث أصبحت الدراسات المستحدثة التى تناولت هذا الطور النهائى الحاسم هى الحرية دون غيرها بان تلفت نظرنا وتسترعى انتباهنا لما فيها من جس لنبض حضارتنا هذه الكونية ذات السمات الخاصة بها والتى لم تشاركها فيها أية حضارة من الحضارات المنقرضة او التى ما زالت صامدة ليوم الناس هذا فى وجه الانقلاب العالمى ، وان تضعضعت أركانها ٠

وفى طليعة المؤرخين العصريين الذين درسوا درسا فلسفيا متعمقا تاريخ الحضارات مستخلصين من بحوثهم اراء ومذاهب فى الفكر تنسحب على التطور العام للبشرية جمعاء ، فى طليعة اولئك المؤرخين المتفلسفين المتفهمين لسير التاريخ يحسن بنا أن نذكر عميدهم بلا مراء وهو العلامة الفيلسوف المؤرخ المحقق ارنلد٠ ج٠ طوينبى Arnold J. Toynbée

وهو انجليزى الجنسية ولد سنة 1889 وتلقى دروسه بمدينتى Baltiol Winchester وباشر قبيل الحرب العالمية الاولى خطة عضو بمعهد الفنون البريطانى بأثينا ٠ وكان قد تخصص فى دراسة التاريخ اليونانى ٠ وكان لاندلاع حرب البلقان يومئذ أثره العميق فى توجيهه الفكرى ، اذ لم يتمالك من المقارنة بين هذه الحرب الضروس المتأخرة وبين حروب بيلوبونيز Peloponèse التى اندلعت فى عين الاقطار قبل المسيح وافضى أمرها الى تصدع بناء الحضارة اليونانية ٠ فكان العلامة الشاب يتشوف من يومئذ الى الكشف عن الاسباب المعقولة لفناء الامم والحضارات ، وكان أحد هذه العوامل الحاسمة الهدامة يتجلى له فى ظاهرة الحروب والنظام العسكريين المتجهين بطبيعتهما الى التقتيل والتخريب ٠ وفى تلك الفترة انيطت بعهدته اجراء حفريات بمقدونيا ٠ وفى خلال الحرب الكونية الاولى 1914 ــ 1918 رسم الخطوط العامة لمؤلفه الكبير Study of History او بحث التاريخ الذى أخذ فى نشره ابتداء من سنة 1933 وظهر منه لحد الان زهاء عشرة مجلدات ٠ وهو يحتل مناصب علمية سامية للبحث والتدريس بجامعة لندن ، وبالخصوص فيما له صلة بالعلائق الاممية ٠ وقد عمد الكثيرون فى انجلترا وفرنسا الى عرض وتلخيص مذهبه فى تأويل التاريخ واستخلاص نواميسه واستجلاء عبره ٠

لقد قام طوينبى بمجهود جبار ، فى سبيل تأويل احداث التاريخ ، اذ يحاول تفهمها على ضياء المنطق والعقل ، شاملا بذلك الايضاح والامعان كافة الحضارات الانسانية ٠

قال طوينبى بتعدد الحضارات البشرية ، وان أثبت وجود صلات رحم تربط السابق باللاحق ، بحيث تنتظم كلها فى سلك واحد هو سلك التاريخ الانسانى فى مجموعه ٠ وهو لا يحاول بالمرة تحديد مفهوم الحضارة فى حد ذاتها ٠ بيد انه يقول عنها أنها الميدان المتناول للفهم والادراك ، مما يدعى

بالعمل أو النشاط التاريخي ٠ وهذه العلاقة شبيهة بما ذهب اليه العلامة ابن خلدون اذ قرر أن التاريخ يبحث عن العمران البشري ، ومن اجل ذلك انبرى يبحث نواميس ذلك العمران ، حتى يركز عليها علم التاريخ الذي يجب أن يعتمد طبيعة اشياء وقواعد العمران الانساني ٠

على أن طوينبي قد تناول مفهوما مستحدثا تبلور خلال القرن التاسع عشر وهو مفهوم الحضارة Civilisation والحضارة في نظره هي بصفة عامة عبارة عن منطقة او حيز ما من الزمن والمكان ، تتضامن عناصره ، ويرتبط بعضها ببعض ، وان انعدمت تلكم الصلات كلما اجتزنا تلكم الحدود المرتسمة في الزمن او رقعة الفضاء ٠

أما قبل أن تنشأ الحضارات ، فقد قامت المجتمعات البدائية ٠ والفرق بين المجتمع البدائي والحضارة هو أن المجتمع البدائي لا تاريخ له ، وهو بالتالي ضيق الرقعة ٠ وانما انعدم حظه من التاريخ لاتجاه انظاره نحو ماضيه ، بحيث ما تنفك حركاته متكررة على منوال متشابه رتيب الى أن يضمحل أو تخلفه حضارة قائمة الكيان ٠ فالتاريخ اذن هو تاريخ الحضارات

ولا شك أن مدى التاريخ ، بهذا الاعتبار ، قصير جدا ، اذا اعتبرنا حياة الانسانية التي تعد مآت الالاف من القرون ٠ وكذلك بالنظر الى امكانيات العيش والبقاء المتوفرة اليوم لبني الانسان والتي يمكن تقديرها بمليونين من السنين اللهم الا اذا حلت الكارثة أو أزمة الازمة ٠

وللمجتمعات البدائية دور هام في نظر طوينبي ٠ فهي التي بلغت بالانسان الى مستواه الانساني ، وصعدت به من الدرك الاسفل او الحضيض الحيواني ٠ فنحن قد بلغنا اذن مستوى الاوادم خلال ذلك الطور البدائي ، ونحن اليوم بصدد العروج الى مستوى وأفق أرفع ٠ وان دور الحضارات لهو ابلاغنا ذلك الاوج ، وهو أفق (ما فوق الانسان) ٠

ومما يؤخذ على الفيلسوف الانجليزي أن نظريته التطورية هي متأثرة باراء الفيلسوف الفرنسي برغسون Bergson لا سيما في كتابه المدعو بـ « التطور الخلاق » l'Evolution créatrice على أن طوينبي معترف بذلك وكثيرا ما استشهد في دراساته بفقرات كاملة من كتب برغسون ٠

وقد عمد طوينبي الى احصاء الحضارات الانسانية في مجموعها من بدء التاريخ فبلغ عددها عنده زهاء احدى وعشرين ٠ وقد انقرض وباد معظمها دون أن يبلغنا ذلك المستوى المنشود ، مستوى السوبرمان او (ما فوق الانسان) ٠

بادت الحضارات كلها وانقرضت من غير جدوى اللهم الا خمس باقية لحد الآن في نظر العلامة المؤرخ الانجليزي ٠ وهذه الحضارات الخمس التي تعيش اليوم هي : الحضارة المسيحية الغربية ، والحضارة المسيحية الشرقية ، والحضارة الاسلامية ، والحضارة الهندية ، والحضارة الصينية ٠ ويذهب طوينبي الى القول بأن ثلاثة من هذه الحضارات على الاقل هي اليوم بصدد الاحتضار ٠٠

كيف تنشأ حضارة ما فى نظر طوينبى

كيف تتخلص حضارة ما من ربقة المجتمع البدائى ، او بعبارة اخرى كيف تتكون الحضارة بصفة عامة ؟ انما يتم ذلك اثر حصول وعى لدى ابناء ذلك المجتمع البدائى ، اثر اصطدامهم بمحنة من المحن ، وتعرضهم لما سماه بالتحدى من طرف عناصر الطبيعة او من طرف معاصريهم من ابناء الانسان • أنفسهم • وكذلك تنبثق الحضارة من التغلب على مشقة أو محنة يصطدم بها بنو الانسان • يقول طوينبى ما معناه : ان منشأ أى حضارة يكون حينما يكافح البشر تحديا ويظفرون فى كفاحهم وكلما ترعرعت حضارة واكتهلت فلا مفر من أن تصطدم بعقبات متجددة من الداخل أو من الخارج ، ومن جانبى الطبيعة والبشر على السواء • ويتتابع النمو للحضارة المعنية ما وفقت الى اجتياز العقبات والتغلب على الصعاب •

على أنه قد يحدث أن تعرض عقبة كأداء لا يمكن اجتيازها بحال من طرف حضارة ما فعندئذ يحدث ما سماه طوينبى Breakdown ومعنى ذلك توقف النمو ، ويضرب لذلك مثلا سلسلة حروب بيلوبونيز Peloponèse ببلاد اليونان وهى التى ابتدأت سنة 431 قبل الميلاد • واذ لم تستجب المدن اليونانية للتحدى العارض يومئذ لها وهو ايجاد حل لمشكلة الوحدة الهيلينة او اليونانية فقد قضى عليها بالتناحر والانهيار فى أمد قد يقصر وقد يطول •

وهناك آية اخرى لحدوث الصدع القاتل فى هيكل الامة او الحضارة ،وقد اطنب فى شأنها الفيلسوف الانجليزى • ذلك ان الصلات ما تنفك منسجمة بين كافة عناصر المجتمع وطبقاته • وتكون فى طليعة الجمهور نخبة من القادة تعمل لفائدته أكثر مما تعمل لخاص مصلحتها • ويظل مجموع الامة منقادا عن طواعية لاوامر قادته • لكن ياتى حين تتغير فيه الحالة وينقلب الوضع اذ تنقطع النخبة الحاكمة عن العمل لفائدة الجماهير ، فنراها تسعى لمجرد تدعيم مصالحها المكتسبة • أما تلكم الجماهير ، فلا تعود من يومئذ تنقاد الا عن طريق الجبر والاكراه • وهذا ناشىء عن عدم استجابة لصنف آخر من التحديات •

ونحن نقف عند هذا الحد من دراسة آراء طوينبى حول مجرى التاريخ البشرى بما فيه من حضارات متتابعة فى سيرها من مهد الى لحد ، ومن مولد الى نمو واكتمال ، الى تضعضع وموت واضمحلال • وهناك نقاط كثيرة للشبه بين العلامتين العربى التونسى والاوروبى الانجليزى • وكفانا هنا أن نذكر ما ذهب اليه ابن خلدون من أن للدول اعمارا كاعمار الافراد • فها هو ذا Toynbée يعمم هذا المعنى على الحضارات الانسانية وهى ابعد مدى وأوسع مفهوما والله يرث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين •

ابو الوليد

حـــــديث الشمـــــــول

بقلم : مصطفى آغــة

يسر « الفكر » أن تقدم لقرائها فى هذا العدد وفى الاعداد القادمة نماذج من تراث الكاتب التونسى مصطفى آغا ، وهى اذ تنشر للاديب التونسى الراحل بعض ما انتجته قريحته فانهـا تخـدم بذلك الادب التونسى الذى مـا تزال عيون منه مندثرة فى المكتبات الخاصة تنتظر من يقفز بها الى المطابع فيعرف بها التونسيين وغير التونسيين الذين يسمعون الكثير عن مصطفى آغـا وامثال مصطفى آغـا ولا يتمكنون من الظفـر بانتاجهم والتمتع بافكارهم ٠

ولقـد نشرت للأديب الراحـل منـذ سنوات بعض المقالات يساجل فيها أبا العلاء ويقارعه وهى طريفـة ممتعة تدل عـلى معرفة الكاتب والشاعر للمعرى وتظهر مقدرته وطول باعه ٠ ونحن اذ نمكن القراء من هذه العينـة لا يسعنا الا شكر ورثة أديبنا على تمكينهم ايانا من بعض المقالات المخطوطة ومساهمتهم فى نشر الانتاج التونسى ٠

الفكر

اليكم أيها القراء الكرام ، نبذة من خلائق المدام ، حديثا بين اثنين ، او مناقشة بين ضدين ، رجل أقلع وتاب ، وآخر عكف عليها وأناب ٠

الثانى : وكلما زدت كأسا ينشرح صدرى ، ويأتينى البسط من حيث أدرى ولا أدرى ، ويتزايد شوقى الى وجـه الحبيب ، ويخيـل الى انى سأراه فى القريب ، واستمر فى هذا الرجاء ، حتى ينهزم جيش الدجى ٠

الاول : ومتى كان الانتظار من اللذات ، يا أخا الكاسات ٠

الثانى : لـم أكلمك عن الانتظار المريب ، الـذى يعترى من أرتشف كاسات اللبن الحليب ، بل حدثتك عمن سقاه وابل من دنـان ، فابتعد عن حضيرة الانسان ٠

الاول : الى أين هذا الابتعاد الروحانى ، يا أخا القنانى ، اصعود الى ملائكة الرحمان ، أم نزول الى أواسط الجان ، أم حشر مع الحيوان ، فان كان هذا الابتعاد ، قربا من ام عامر وأبى زياد ، فهو لعمرى نزول من علياء المكرمين ، الى حضيض العير والضئين • فبئس الارتحال ، وسحقا لهذا الانتقال ، وهذه النقلة السعيدة ، هى الى اصناف عديدة ، ألى قبيلة الطوارى الجارحة ، أم الى فصيلة البهائم السائحة ، ام الى طائفة الزواحف ، ام الى قبيلة السلاحف ، فان كنت من القسم الاول فانت قرم مهول ، وان كنت من الثانى فمستضعف مأكول ، وان كنت من الثالث فأنت خطير ، وان كنت من الرابع فأنت قذر ، فاختر من هذه الاصناف ، ما يحلو لك يا اخا السلاف ، اما التحاقك بالجان ، فاعوذ بالله من الشيطان ، ألم يكفك ما يحدثه الرحيق ، فى احشائك من حريق ، حتى تطلبت الاقتراب من النار ، غير حاسب ما ينجم عليه من الاخطار ، واما التحاقك بالملائكة الكرام ، فهى منزلة عليك حرام ، فللادعاء عواقب ، وللسماء ثواقب •

الثانى : لعمرك لست بالقرم المهول ، ولا المستضعف المأكول ، ولا بالخبيث الخطر ، ولا بالعاجز القذر ، بل رقيق الاحساس ، لين المراس ، ندى الكفين ، سالكا اقوم النجدين ، ميال الى الهوى ، صبار على الجوى ، جبار للقلوب ، متساهل مع المحبوب ، تنقصنى ظواهر المحاسن ، فلا أفرق بين سلسبيل وآسن ، يعجبنى كل ما يقال ، وان كان غير ذى بال وتطربنى كل نادرة ، من أى مصدر صادرة ، وتضحكنى كل فكاهة ، صدرت عن نباهة او بلاهة ، فهل بهذه الصفات ، تتصف الحيوانات •

الاول : انى اراك تتكلم على أوائل الانتشاء ، وتتصوره كما تشاء ولكن عند التمام • يحدث الخسوف والظلام ، ولئن بهرتك أشعة هلال مدامتك ، فبدره سبب خيبتك وندامتك ، وهكذا اذا هبت صبا الصهباء ، فان خاتمته النكباء ، وان ظللتك غمائمه المتناسقة ، فذلك انذار بقرب الصاعقة ، وعندها تبتعد عنك الانسانية ، وتقترب منك الحيوانية ، فتكون تارة شرها أكولا ، واخرى مستضعفا ماكولا ، وآونة خطرا من رقاعتك وبذائك ، واخرى قذرا مما يخرج من امعائك •

الثانى : ولم تنكر هذا الحال ، والدهر كما تعلم لا يبقى على حال ، وأوائل الاشياء غير خواتمها ، وظواهر المرئيات غير بواطنها ، وأبدية الحالة مستحيلة ، يا أبا النزاهة والفضيلة •

الاول : قد تبين الآن أيها الغر ، انك تشترى نصف الشر بكل الشر ، أسعيد من يقضى يومه بين يقظه وسنه ، وجثته هامدة عفنه •

الثانى : أسمع الآن ما أقول ، أيها الاعمى المهول :

انمـــا الخمــــر حيــــاة فاغتنـــم هــــذى الحيـــــاة
ونعيــم الـدهــر نـــاد فيــــه راح وفتيـــــاة
وقيـــــان صـــادحــــات اطـــربت بالنغمـــــــات
ورجــــــال أدبـــــاء وغــــــلاة لا زنــــــاة
وكـؤوس الــراح تجـــرى فـــوق راح الجـاريــــات
مـالهـــــا مــن مستقــــل قبــــل طمس النيـــرات

قسما لو يكون فى الخمر صفة واحدة ، لجلت هبة وعظمت فائدة ، اعنى انها شفاء لاهل الهوى ، وأكبر سلوى وانجع دواء ، فكم اشغلت صبا عن عشيقه ، وحادت به عن طريقه ، فتضاءل ذلك الخيال ، وتراجع بدره الى هـلال ، ثم تناقص حتى صار فتيلا ، ثم غاب فلا خيال ولا خليلا ، وبات خلى البال ، من الاصل والخيال ، واكتفى بمحاسن من حضر ، وعاطاه وسارقه النظر ، فكيف ترى الفصل الاخير ، يا أخا الوعظ والتحذير ٠

الاول : أرى انك لم تدر الهوى ، ولم تذق طعم الجوى ، ولم تحدث سهام الصبابة ، بفؤادك ادنى اصابة ، ولو احدثت فيه اخداشا لا جراحا ، لما تناولت بعد اقداحا ، نعم ان الراح تشغل عن الاحزان ، ولكن ليس لهـا على الصبابة من سلطان ، بل تسعر ما خبت من لظى ، وتبيت صاحبها على جمر الغضا ، وكلما زادت يزيد الاقتراب ، حتى يكاد ان يرتفع الحجاب ، هذا كلام من عرف النوعين ، وخبر القسمين ، وقد اخـذ عليه شاعرنا العصرى ، صاحب أبى العلاء المعرى ، فقال :

قيـل فى الراح شفاء من جوى لفــؤاد قــد تلظـى لهبـــا
قلت هاتـــوا يــا نــدامى قدحـا علنـــى أبلــغ منــه مأربـــا
فـــاذا طيف الـــذى تيمنــى كلمـا قـربت كـأسى اقتربـا
فكـأن الــراح فيهـــا روحهـــا وكــأن الحب صــار الحببـــا

والآن والليلة قاربت منتهاها ، فهاك نبذة من حقيقة التى تهواها :

هـــل أتـــاك مــن نبـــا يـــا أخـــا ابنـــة العنب
ان مــــن تغـازلهـــــا فـــى ثيـابهـــا القشب
مـــن أتتـــك حـاليـــة فـــى الكـــؤوس بـالحبب
شهـربـــاء قـــد قطعت عـــــدة مـــن الحقـب
مـــن حضيض تـربتهـــا قـــد علت سمـــا الـرتب
مثلمـــا عــــلا زحـــل وهـــو أشــأم الشهــب

لولا القفة ...

قصــــة

بقلم : بيــة النوري

قال الشيخ بعد ان شمر على ساعديه واحضر ابريقه :

ـ قوم يا طفلة املالى بليون ماء بش نتوضأ ٠

واتجهت نحو الماجل ، فتاة فى العشرين فى رشاقة تامة وفى حسن قوام مطيعة مستجيبة لطلبات والدها عن طيبة خاطر ٠

أتم العم محمد وضوءه وصلاته وهى لا تزال منتبهة لأوامره التى ما أنفك يصدرها :

ـ حضرلى « الكنتره » والجبه وايجى افتل معايا الكشطه هيا تحرك النهار راح ٠٠٠

نفذت الفتاة أوامره ثم أعطته طرف الكشطة وأخذت الطرف الآخر بين أصابعها، وجعلت تفتل ٠٠٠ وتفتل الى ان رأت ما فيه الكفاية ، نظرت اليه قائلة :

ـ بابا دور هاهى تفتلت ٠

وضع الوالد شاشيته فوق رأسه فسترت لـه صلعة صغيرة لماعـة بيضاء محمرة ، ثم أخذ بطرف الكشطة وجعل يلوى على الشاشية وابنته تقترب منه كلما زاد فى الـلى

أصلح أحواله وتهيـأ للخروج ، غير أن صوت العجوز داخل المقصورة اوقفه :

ـ أشنوة خارج وما دبرتش عالفطور ، باقى هذيكة العيشة حتى الماكلة نخمم عليها أنا ؟ ٠٠ أسمع يا راجل أنا قلقت وفديت من الدباير ٠٠٠

أغتاظ ونهرها بشدة :

ـ أش بيك صبحت على العرك والمرج ، صلى عالنبى ويزى يا أمرا راهو العرك على الصباح يطير البركة ٠٠٠

فأرتعدت وقاطعته بخشوع وبراءة :

ـ صلى الله عليه وسلم ، وه عاد أنا أش قلت حتى تشعل فى ٠٠٠

أسترجع الشيخ هدوءه وتابع :

ـ انت ما هو عندك طرف كسكسى ، أعمل لنا فيم .كسكسى من يديك الملاح وفيه ميات ألف بركة ، ونصف النهار ، توه يجيك « القلفة » أبعث معاه الفطور والشواشى الحاضره ..

ثم خرج راضيا الى حانوته بسوق الشواشية حيث يقضى اليوم كله .

اشتغلت كل من الام وابنتها بشـؤونهما ، فقضتا الصبيحة فى التنظيف والغسل ، وطهى طعام الغداء المتفق عليه .

انتصف النهار واذا بطرقة على الباب يتجاوب صداها فى المنزل ، ونادت العجوز أبنتها التى تفرغت لاحضار المائدة :

ـ زنوخه ... يا زنوخه ...

ـ نعم يا أمى .

ـ وميه أنشاء ألله ، ياخى طرشت ، بره شوف أش كون جاء ...

خرجت فى دلال وأستعذبت رنة قبقابها فزادت فيها ولما دخلت السقيفة صفقت تستفسر عن الطارق ، فأجابها صوت رجل فيه رنة وعذوبة .

ـ قالك عرفى أعطينى الفطور .

ـ باهى أستنا شويه .

أعلمت والدتها ، فأعطتها قفة الفطور التى كانت قد أحضرتها منذ قليل ، وأمرتها بالذهاب الى بيت الجلوس كى تأخذ منها صر الشواشى ثم حذرتها :

ـ هوكه رد بالك توريه وجهك ، مدله القفة من وراء الفردة لو كان أنا مش لاهية ويدى مسخه رانى خرجت له .

تضايقت الفتاة من كلام والدتها وأجابتها :

ـ ووه يا أمى أش بيك هكه ياخى مستانسة نورى وجهى للعباد ، هانى باقى محبوسه وما يعرف خلقتى كان حيوط الدار .

ـ هيا مليح يزى من قلة الحياء ، وبره راهو الراجل يستنى هوكه ما نزيدش نوصيك يعيش بنتى :

سكتت فى أول الامر ثم رفعت حاجبها وتمتمت :

ـ باقى وهى توصى محسوب أشنوه اللى بش ينقص منى كيف يرى وجهـى

وقف الشاب أمام الباب الاصفر يتأمل المسامير الغليظة السوداء والحلقتين المعلقتين به ٠

وقف ينتظر أمام هذا الباب الجميل والذى يخفى وراءه ما يخفى ٠٠٠

انفتح مصراع الباب وبرزت منه القفة ، ولاح معها معصم رقيق لطيف فسحره ، وأشتهى لو يداعبه ، ولكن أخلاقه وكرامته وخجله ابت عليه ذلك ، وأكتفى بالنظر اليه رغم سرعة اختفائه ٠ أرادت الدخول ، لكن غريزة التطلع دفعتها الى ان تخرج رأسها لتراه ، فأطلت ٠٠٠ وكأنه البدر أطل ٠٠٠ وفجأة تلاقت عيناها بعينيه ، فكسا الخجل محياها وأضطربت ولم تجرؤ على النظر اليه مرة أخرى ، ثم دفعت الباب بعنف ودخلت ٠٠٠

ارتبك الفتى وجعل يتساءل :

ـ أش بيها سكرت الباب فى وجهى بها القوة الكل زعمة ما عجبتهاش ؟؟ ٠٠٠ والا حشمت ؟! ٠٠٠

أما زنوخة فقد عاشت لحظات غريبة ، وشعرت لاول مرة بان قلبها أخذ ينبض بعاطفة لم تشعر بها من قبل ، عاطفة كانت مكنونة فيه ، لقد أذهلتها النظرة ٠٠٠ تلك النظرة التى اخترقت قلبها الحالى ٠٠٠ ثم جلست تفكر ٠٠٠ وتفكر ٠٠٠

فى المرة الموالية طرق الباب ، فأسرعت لفتحه ، وخرجت يدفعها ألامل فى نظره فاذا بها تجده قد وضع الماعون فوق العتبة وانصرف ٠٠٠ فأخذته ودخلت خائرة القوى قد خاب رجاؤها ٠٠٠

يا لسوء التفاهم ، لو كان بامكانها لتجرأت وصارحته بما يختلج فى نفسها من مشاعر وأحاسيس نحوه ٠٠٠

استسلمت الى ذلك الشعور الخفى وما وجدت فيه من لذة غريبة ٠٠٠ وأحست بالغرام يداعب قلبها ، وان كانت لا تعرف معنى الغرام من قبل ، وشعرت لاول مرة باعباء « الحزارة » ٠٠٠ فهى تعيش محجوبة بين أربعة جدران ٠٠٠ فلا تجد من تبثه شكواها ولا أحد يفهم موقفها ٠٠٠

قدم الاب من السوق وقامت لخدمته ، فتوضأ ، وصلى وتم العشاء ، ثم تفرغ للسهر فى بيت الجلوس مع ابنته وعجوزه حيث انهمكوا فى شغلهم

انتحت العجوز ركنا فى الحجرة وقد وضعت امامها كوما من الشواشى وجعلت تخيط « الكبيتش » فى أعلى كل شاشية ، وأشعلت « زنوخة » الكانون ، ووضعت فوقه « نحاسة » بالماء وأنتظرته حتى فتر ، وأخذت تغمس

الشاشية تلو الاخرى وتعصر ثم تمدها الى والدها الذى أحاطت به القوالب من كل جهة ، فياخذها ، ويضع كل واحدة فى قالبها .

وتنتهى السهرة بانتهاء الشغل .

∴

أشتدت الحركة بسوق الشواشية ، فكثرت الجيئة والذهاب وكثر الكلام والبيع والشراء ، والغريب أن معظم « الشواشية » هناك شيوخ ، فكنت لا ترى سوى الجبة والكشطة والسبحة ، وكنت لا تسمع سوى عم الحاج ، وسيدى الحاج ، ويـا حاج .... أضف الى ذلـك بعض « القلفوات » الذين اختلفت ملابسهم بين لباس عصرى وتقليدى ... وآخرين بالجبة كذلك .

وغرق السوق فى جو كله حيوية ونشاط .

جلس الطيب فوق دكة الحانوت ، وانهمك يخدم : « قردش الصوف ، طبع الشواشى ، وضرب « البتير » ، نظر الى الحانوت المقابلة ، فمازح زميله ، مر « القهواجى » بطبقه ، فطلب منه قهوة ، وحيا عم الحاج صاحب الحانوت المجاور لهم . ونظم بعض شواشى مكومه ورتبها فى الخزانة داخل الحانوت . ثم تحدث مع « عرفه » ، وأستقبل الزبائن ، فقاس على رؤوسهم الشواشى وأكد لهم حسن « السلعة » واتقان الخدمه . وقرطس .. ثم صاحب الحمال بكيس من الشواشى المكبسة الى دار « البطان » . ولما دوت الصفارة تعلن الزوال ، أتجه الى دار الشيخ فى أسرع من البرق ... وطرق الباب .

خرجت وفى نفسها نشوة ، وفى قلبها أمل ، ومدت له القفة ، وانتظرت حتى أبتعد قليلا ، ثم أخرجت رأسها لتنظر اليه .

لفت نظر الفتى حمرة فوق المنديل فمد يده وأخرجها فاذا بها قرنفلة قانية اللون كعرف الديك ، بقلبها عروق بيض قطفتها من المحبس ووضعتها فوق المنديل الذى سترت به القفه .

انتشرت الفرحة على وجه الفتاة عندما رأته يشم ... ويستنشق ، ويبتسم كأنه فهم المعنى وما فيه من لغز ويا له من لغز ...

مرت الايـام على « زنوخة » وهى فى حبهـا تتعذب ، وتذرف الدمع فى خلواتها ، وتستلذ آلامها فتسبح فى بحور من الأحلام المعسولة ، وتستأنس لقدومه كلما أتى لاخذ القفة ، ثم تحرص على كتمان عواطفها ، واخفاء خلجات نفسهـا . وأصبحت تستطيب حكايـات والدهـا عندمـا يتحـدث عن « القلفة » فيستعرض خدماته معه فى الحانوت ويقول :

ـ الحق الحق طفل باهي ويعمل الكيف ، رأس واطي ومهنيني في كل شيء ...

تمادى التراسل بين زنوخة والطيب بواسطة القفه وبشتى الحيل ، فمرة ملعقة مربوطة مع الاخرى ، ومرة عقدة في ذيل المنديل ... ومرة زجاجة عطر صغيرة .. ومرة صورة ومرة زهرة ... الى غير ذلك .

وظلت تخرج اليه من وراء الفرده كما تأمرها والدتها ولكن ذلك لا يمنعها من أن تسترق النظر اليه ولابد لهذا أن يراها ... فأصبح يتخلل ذلك همسات التضرع وابتسامات الحياء .

*

يبدو ان العجوز شعرت بحرص الفتاة على القفة ، واهتمامها بها ، فارتابت لذلك ، ومنعتها من الخروج الى الفتى زاعمة :

ـ راهو بوك ما يحبش وكان يفطن يوريك ...

ووضعت الوالدة على عاتقها هذه المهمة ، فضاقت الفتاة ، وضاق صدرها ، وودت لو تظفر بصديقة لتبوح لها بسرها وتشكو لها آلامها لعلها تخفف عنها او تتدبر معها الامر .

ووجدت فرصة لتتحادث مع ابنة جارتهم « عربية » ، وهي لا تكبرها سنا . ونقرت نقرات على حائط بيت « المونة » فاجابتها متسائلة :

ـ شكون يدق ؟ ؟ . .

ـ أنا يا زبيده ، قلي انت اش تعمل توه ؟

ـ شيء ، وفيت قضيتي ، وأمي خليتها مقيلة .

ـ حتى أنا أمي راقدة ، أمالا أستنى بش نحكيو .

وضعت كرسيا ، وتسلقت الشباك ، وانهمكت تحكى لها ... وأشتكت ، وباحت لها بسرها ثم طلبت منها ان تعينها فقالت لها :

ـ وخيتي أش تحب نقلك ، الرجال الكل ما فيهم أمان ...

ـ ووه يا زبيدة طيحت لي قلبي ، زعمة بالمنجد ؟ ...

ـ عاد أنشدني أنا الي تعدى على راسي ، قالك أسأل مجرب وما تسألش طبيب .

وألحت عليها متسائلة :

ـ كيفاش يا زبيدة أحكي لي ماني وخيتك ... ؟ .

وجعلت تقص عليها حكايتها مع ابن عمتها الذى كان يزورهم ولا تقابله بأمر من والديها ، ولكنها كانت تطل عليه من الشباك ، فيراها وتتفاهم معه بعينيها ويديها دون أن يتفطن اليها أحد . وأتت لها ببعض أشياء كان يدسها لها خفية فأرتها صورة تمثل قلبا أحاطته الازهار ، وأخرى تمثل معاهدة بين شخصين ، ومنديلا يعبق عطرا ... وبذلك ظنته يخلص لها ويبادلها الحب ، ولكنها أكتشفت اخيرا بواسطة خالتي هنونة « الدلالة » انه أنزلق في حب بنت عم الهادى « محرك الحومة » ، ويقال انه خطبها من والدها فوافق عليه ، وربما سيعين زفافهما عن قريب ، وجعلت تبكي وتتحسر ... فشاركتها زنوخة البكاء ، وعطفتا على بعضهما بعض ، فقالت زبيدة مسلية

ـ وخيتي أسمع كلامي ، قالك اللي باعك بالفول بيعه بالقشور ، انساه من بالك ، كيما قلت لك ، الرجال كلاب وغدارين ...

وسمعت صوت والدتها ، فتركتها وانصرفت :

احتالت لتظهر اليه لكن دون جدوى لان والدتها تمنعها من ذلك ، فحارت وكثرت عليها الافكار ... ولم تعد تتحمل أكثر مما تحملت ، وكم من ليلة انسلت من فراشها عندما تسمع صوت والدها وهـو يتحدث في البيت المجاورة ، وتضع أذنها على ثقب الباب كي تسترق السمع ، من يدرى لعله يحكى على « القلفة » . ويخيب ظنها كلما تسمعه يذكر الشغل والمصاريف ، والسوق وكسادها وفقـدان القرمز ، وغلاء صوف أستراليا ، ثم الطامـة الكبرى في ورود شواشي مصنوعة من الخارج ، ومن فرنسا وزهد الشبان في لبس الشاشية وانها تاج المسلم ، فتثور وترجع خائبة تجر قدميها ...

منذ مدة لم يعد الطيب يرى زنوخة ، فارتاب لذلك ، وتساءل عما أحاط بها ، ولم اصبحت العجوز تحل محلها وتتحمل مؤونة الخروج اليه ، واعطائه القفة ، تلك القفة التى افتقدت منها وسيلة التفاهم بينهما ، لقد سئم يـد العجوز المتجعدة المرتعشة التى صارت تخرج اليه يوميا ، ولقد حرموه من رؤية تلك اليد الناعمة ، وذلك المعصم الابيض المحمر البلورى ، وتلك الانامل الرقيقة التى أشتاق اليها فحرمته لذة النوم ... لقد صبر طويلا ... صبر أكثر مما يستطيع وفى آخر الامر التجأ الى من يطلع فتاته على شوقه وقلقه ، ويأتيه بحقيقة خبرها وما خلف هذا الباب الاصفر من أسرار ...

***

كانت القائلة شديدة الحر عندما التجأت العجوز وأبنتها الى نسيم السقيفة ، وأتخذتا « جلـد كبش » للجلوس عليه . أخذت الصبية « تشبك » وقـد أشتغل فكرها بفتى أحلامها الذى أشتد شوقها الى رؤيته ، أما الام فقد أخذت

تطوى بعض الملابس ، وجعلت تفكر فى ابنتها التى كلما تقدمت الايام خشيت عليها من « البوار » ، فهى تراها تخطت سن الزواج ، وتزعم انها كبرت ، وتتذكر ماضيها فترى أنها عندما تزوجت الشيخ محمد كان عمرها لا يزيد على الخامسة عشرة ٠

وبينما الاثنتان فى تفكير طويل ، اذ تنبهتا على صوت أمرأة دوى صداه فى الزقاق الهادىء :

ـ يالى تضرب الخفيف ٠٠٠ اش كون تحب تضرب الخفيف ٠٠٠

وأغتنمت العجوز فرصة غياب الشيخ ، ونادتها بصوت خفى خشية الجيران ، وأدخلتها :

ـ زوز يا أختى ٠٠٠

دخلت المرأة ، وجلست فى السقيفة ثم أخرجت ما فى قفتها من متاع : مغرفة وملعقة أكل عليها الدهر وشرب ، وبعض قطع من الرصاص ، وخرقة بالية ٠٠٠٠

جىء لها بكانون قد تطاير شرره ، وتعالت السنته حمراء ملتهبة ، ثم وضعت العجوز أمامها مهراسا بعدما دست تحته قطعة من النقود ٠

بدأ الاهتمام على العجوز وعلى ابنتها فجلستا جوار « ضرابة الخفيف » تتابعان حركاتها ٠

أخذت قطعة من الرصاص ، وتمتمت عليها ، ثم سلمتها للفتاة قائلة :

ـ خوذ أنوى

استرجعتها ، ووضعتها فى المغرفة التى أحاطت بها جمرات ، وبقيت تنتظر ، طلبت قليلا من الماء وصبته فى المهراس ، ثم صبت فوقه المغرفة المملوءة رصاصا سائلا فاذا بـه ينقلب معدنا كما كان من قبل ، فتفرقع واندفع قليل منه بقوة الى السقف فصاحت منتصرة

ـ شفتو هذيكه عين الشطان توه طارت ، هذا يومى الى هنا فى الدار عندكم نفس ٠

أطلعت بقية المعدن من المهراس وأخذته بين أصابعها ثم جعلت تفتش عما جاء فيه من أسطر وتنقيب ونقط ، بسملت وسألت الفتاة والمعدن بين أصابعها :

ـ أش اسمك ؟

ـ زنوخه ٠

ـ اسم أمك ؟

ـ فطومة

ـ زنوخه بنت فطومة

سعدك القدام

وحنتك فى الاقدام

شوف زنوخه قالك فين النيه فين العمل ٠

ثم أشارت باصبعها الى تركيب غير مستقيم فى الرصاص وقالت :

ـ هـذى حيـرة قويـة

عثرت على آخر مستقيم وشرحت :

ـ هذا راجل فى الثنية

طويل ويلبس شاشية ٠

وأنتقلت الى نقط بدت كالحبوب وقالت :

ـ هذى الذريه ٠

ثلاثة أولاد وبنيه ٠

ونظرت الى حفرة فى الرصاص وخاطبت الفتاة :

ـ هذى برمة الفرح والقرنفل داير بيها ،

أنت تستنى

وهو يتمنى ٠

وجعلت تشرح وتفسر وتنطق نظما ، وترمز بالغاز فهمتها الفتاة من كلامها ، وعرفت أنها مرسلة من طرف الشاب ، خصوصا وقد لوحت لها الى حيرته وتساؤله عن اختفائها ، وشوقه اليها ، فدست فى غفلة من العجوز ورقه بها صورة قرنفلة كانت قد أحفتظت بها منذ مدة ٠

أنتهت « ضرابة الخفيف » من مهمتها ، وقامت بعدما أخذت ما كان تحت المهراس ، وطلبت من العجوز :

ـ صب هـاك المـاء اللى فى المهراس على عتبـة باب الـدار باهى يطير النفس ، ثم خرجت تردد من جديد :

ـ يالى تضرب الخفيف

ارتاح بال العجوز لما سمعت من كلام قارئة البخت ، والتفتت لابنتها التى غرقت فى التفكير عن الشاب ... ونبهها صوت والدتها :

ـ وألله تبارك ألله عليهـا تشهى ، أما أنـا بهت فى النفس راهـو الرصاص طرشق وطلع حتى للسقف ، الى عطاهالنا بايت يسبح بنيتى . أنا عرفتها أشكونى المسوده ، عندها عين تبرك الجمال .

وقاطعتها ابنتها مستفسرة :

ـ اش كون يا أمى .

ـ ماهى عربية جارتنا ، باقى وهى لاهية بينا ، حتى بش تأكلنا بعينيها ، شوف يا زنوخه أنت صغيرة ما زلت كيف بديت تمشى وهى دخلت ، راهى مش تقلك ماتت وفاتت ، وصاحت فرد صيحة ، قالت لى مش بنتك أصغر من بنتى زبيدة ؟ قلت لها ايه . شوف لحلخت ، كيفاش انت أصغر من بنتها ومشيت قبلهـا ، هى خـرجت وأنت كنت جنس رجعت جـنس ، ومن وقتها قعدت تقلك يجى جمعه وأنت مريضه وما تشكى الا بساقيك ، عاد هذا مش ظاهر ؟

سكتت البنت وقامت الى بيتها ، فمشطت شعرها وأسدلته ظفرتين وراء ظهرها ، ونظرت الى المرآة وابتسمت لها ، وقبلتها كثيرا ... ثم جلست تفكر ... وكلما تخيلت « القلفه » لاح الغرام من عينيها

وفى الغـد بعدما خرجت العجوز « للصانع » كالعادة ، وبعد أن دفعت اليه القفه ، لحقت بها أبنتها ، وأطلت ... وياليتها ما أطلت ... لقد تمكنت من رؤية ... من رؤية ماذا ؟ لقد رأت الشاب يطرق باب جارتهم « عربية » ، ولم تصدق عينيها فى أول الامر ، فحدقت مليـا ... واذا بنارها تشتعل وتتأجج فى أحشائها ، ونبض فى جسمها عرق الغيرة وظنت ان صديقتها التى اختارتها مستودعا لاسرارها .. خدعتها ، وسلبت منهـا قلب حبيبها ...

لم تعد تنقر الحائط ولا تحادثها ، وحقدت عليها فكرهتها كرها شديدا ، وطغت الغيره على أعصابها ، وودت لو تظفر بها أمامها ، وتعجن لهـــا وجهها ، فتشفى غليلها ؟

∴

دخلت زنوخه « الحمام » ، فاستقبلتها ضجة جمعت بين أصوات النساء ، وصياح الاطفال .

« فالحمام بالغرفة وما يتسمع بوذن »

شاهدت أمرأة تتخاصم مع اخرى فى الدكانة المقابلة لان ابنها سرق مشط الاخرى ، رأت اخرى خارجة من داخل الحمام وهى تقطر مـاء ، وأتجهت نحو الدكانة لتأخذ « بشكيرها » فبلت صر العجوز الجالسة هناك ، وقـام بينهما خصام فخلعت ملابسها ودخلت ، وفى طريقها الى « بيت السخون » شاهدت عدة مناظر ، وعدة أشياء ، فهذه سمينة بركت فى الممر فعطلت المرور وعثرت فيها أمرأة تحمل سطل ماء ساخن وسمطتها فصاحت صيحة دوى لها الحمـام ، وأخذت تلـك تزيح « حنتها » . فســال الماء أحمر وصبغ أقدام المارات والواقفات هناك ..

مرت بسوداء قد طلت رأسها صابونا ، فسال على خديها أبيض كالثلج ، وأحمرت عيناها ، فارتعدت منها ، ثم أصطدمت بامرأة كأنها « الجنيه » نحيفـة سمراء طويلة القامة كأن صدرها قفص دجاج ، وكـان يديهـا وساقيها فركتان ، وقد أسدلت وراءها شعرها « كخجالى ام ورده » فزلقت بقشرة برتقال وسقطت وأغمى عليها فاحاطت بها النساء ، وألتففن حولها ، وصببن عليها سطل ماء بارد .

دخلت الى (بيت السخون) ، ونظرت حولها فاذا بها ترى زبيده أبنة جارتهم عربية تعوم وسط « البرمه » ، فاقتربت منها وقالت لها فى تهكم :

ـ ايه ياللا ما قصرتش ، هكه الى يبوح لك بسره والا بلاش

لم تفهم قصدها فسألتها فى غرابة :

ـ أش بيك ياخي هبلت ، أش سمعت ، كان فمة حاجه قل لى ...

فاجابتها فى حنق :

ـ آش سمعت ؟ ؟ م لا يا للا أنا ما سمعتش أما شفت ، شفت بعينى هذه وأشارت بأصبعها الى عينها عـاد أنـا مش نحلم كيف رأيته يدق عليكم فى الباب .

طلبت منها ايضاحا فصاحت فى وجهها

ـ زيد ترهدن زيد ؟ ..

لم تفهم المسكينه وأكدت لها براءتها ، فقاطعتها :

ـ ايه ما هو برد قلبك عاد كيف دورته على ماك خائنة غدارة أمـا أنـا المهبوله الى بحت لك بسرى

ثم بصقت عليها :

ـ تفيه عليك وعلى وجهك .

اغتاضت زبيدة بسلوك جارتها وصديقتها خصوصا وقد ظلمتها ، فشتمتها ، وأتهمتها بالغدر ، فأبعدتها من أمامها دفاعا عن نفسها ، فما كان من زنوخه الا أن مسكتها من شعرها ، فصاحت ، وأبتدأ الخصام

فتضاربتا بالبلايين ، وقطعتا شعر بعضهما بعض ··· ولم يفهم أحد سرهما ·····

حازت « مطهرة » واغتسلت سريعا ثم خرجت ، فحضرت « عركة » بين صاحبة الحمام ، وأمرأة جمعت أمامها عدة صغار وأرادت ان تغالطها فى الثمن ، فاقتكت منها صرها على أن تعطيها بقية النقود ، فزعمت أنها « خالصة » ، وأستشهدت بامرأة أخرى ، واشتد الخصام ، فتدخلت بعض النساء ، وعلا الصياح ·

انتهت زنوخه فتلحفت وأنصرفت ·

***

الضجيج يرج الفضاء ، ويتجاوب صداه فى أركان البيت ، واختلطت الاصوات بكل ما يتفق للنساء فى جلساتهن العامه ، وكثرت الضوضاء والهرج ، فاتسعت أعين وتغامزت أخرى ، ورفعت حواجب ، وقطبت أخرى ، ومالت كل أمرأة على جليستها لتهمس لها ، فذممن ، وشكرن ونقدن وانتقدن وعاتبن وهنأن وظهرت الوجوه مختلفة الانواع والاشكال مطلية بالمساحيق ، وضحك المنزل بكل ما فيه الا ··· الا زنوخة لم تضحك، ولم تجرؤ حتى على النظر الى الحاضرات ، فهى تفكر ·· تفكر وهى على كرسيها المزركش تفكر وهى فى يوم زفافها · من يكون هذا العريس ؟ ··

أترى يكون هو ؟ ذلك الذى هام به قلبها ؟ ؟ ··

ولكنه لم يعد يأتى لاخذ القفه منذ مده ، منذ ان تعينت خطبتها ، فحتى والدها لم يصرح باسم الزوج ، فهو يحكم بما شاء وكيفما شاء ، ويجب أن يكون مطاعا ، ولا أحد يتداخل فى شؤونه ، وتصرفاته ·

تساءلت هل يكون العريس غير الذى يميل اليه قلبها فتضطر ان تعيش معه مرغمة كارهة ، وهل لها قوة على رفضه ، وقد حصل كل شيء

وتمر اللحظات متباطية ··· وزنوخة سابحة فى الخيال غارقة فى التفكير وهى تنتظر على احر من الجمر ·

وفجأة قدم العريس ، وتضاعفت الضوضاء وازداد الهرج ، فتتابعت الزغاريد الواحدة تلو الاخرى رنانة ، تدوى فى ارجاء المنزل ، « وعجعج » دخان البخور شذيا وأنتشرت رائحته فى المنزل ، وبدأ الاضطراب على زنوخة وارتبكت ··· وتسارعت دقات قلبها ، ولم تستطع كتمان انفاسها المتصاعدة عند ما رأته ·

يا للدهشة ، بل يا للسعادة ... ولاول مرة بعد مدة طويلة يلتقى نظرها بنظره ، وبان الغرام فى عينيهما ، ولاح الحياء على وجهيهما ، وكانت المفاجأة السعيدة ، والفرحة العظيمة ، وأبتسم الطبيب لزنوخة وقد استهواه جمالها آنذاك ... فهو لم يرها فى مثل ذاك البهاء أبدا ..

لم يعد العريس يستطيع كتمان دمعة سالت على خده لما رأى زنوخة تمسح بمنديلها عينيها وتسأله :

ــ أنت كنت باش تأخذ بنت عربية جارتنا ؟

ــ أبــدا

ــ لواش املا تدق عليهم هاك المرة

ــ عرفى وصانى لبوها بقضية .

وأقتنعت وندمت عما صدر منها فى الحمام .

وبعد قليل ، شهدت الحاضرات فرحة وسعادة منتشرتين على وجهى العروسين الشابين وهما يبتسمان .

وتوالت تهنئة المدعوات :

ــ ان شاء الله كل شىء بالبركة .

كاليغولا

تأليف البار كامو
نقلها الى العربية حسن الزرله

ـ الفصل الرابع ـ

المشهد الاول

(الركح فى ظلام نسبى ، يدخل شيريا وسيبيون • شيريا يذهب الى اليمين ثم الى الشمال ، ثم يرجع نحو سيبيون)

سيبيون ـ (مقطب الجبين) ماذا تريد منى ؟

شيريا ـ الوقت ضيق • يجب أن تظهر الثبات فيما سنفعل

سيبيون ـ ومن قال لك أنى غير ثابت ؟

شيريا ـ أنت لم تحضر جلسة امس

سيبيون ـ (يحول وجهه) صحيح • يا شيريا •

شيريا ـ سيبيون ! أنى أكبر منك سنا ولم أتعود طلب النجدة • ولكنى امر باحتياجى اليك • فان هذا الاغتيال يتطلب مسؤولين محترمين • ففى وسط هذه الكرامات المداسة ، وهذا الخوف المخجل لا يوجد الا رجلان خالصا النية ، هما أنا وانت • وأنا أعلم أنك اذا قررت عدم مؤازرتنا ، فانك لا تخوننا • وهذا لا يهم لان ما أتمناه ، هو أن تبقى معنا

سيبيون ـ فهمتك • ولكنى أقسم لك بأنى لا استطيع

شيريا ـ أتكون من جماعته ؟

سيبيون ـ كلا • ولكنه لا يمكن لى أن أكون من أعدائه (سكوت ثم بصوت خافت) اذا قتلته فان قلبى على الاقل يبقى معه •

شيريا ـ بالرغم من أنه قتل أباك !

سيبيون ـ نعم تلك هى البداية • ولكن تلك هى النهاية أيضا

شيريا ـ انه ينكر ما تقر ، ويدنس ما تقدس

سيبيـــون ـ صحيح ، يا شيريا ، لكن فى نفسى شىء يشابهه • فان نفس النار تحرق قلبينا •

شيــريـا ـ هناك أوقات يتحتم فيها على الانسان أن يختار • فقد أسكنت فى نفسى ما عساه ان يشابهه

سيبيـــون ـ لا يمكن لى أن أختار • لانى أتألم بآلامه زيـادة عن أسباب آلامى أنا • فشقائى هو أنى فاهم كل شىء •

شيــريـا ـ فقد أخترت اذن أن تجعل الحق معه ؟

سيبيـــون ـ (فى صرخة) آه ! أرجوك ، يا شيريا • لم يبق أحد يكون الحق فى نظرى معه (سكوت ؛ ينظران الى بعضهما بعض)

شيــريـا ـ (متأثر يقترب من سيبيون) أتدرى أن بغضى له قد تضاعف من أجل ما فعل بك ؟

سيبيـــون ـ نعم • علمنى أن ألح فى طلب كل شىء

شيــريـا ـ كلا ، يا سيبيون ، بل أنه أدخل عليك اليأس • وادخال اليأس فى نفس شاب جريمة تفـوق جميع الجرائـم التى ارتكبها حتى اليوم • وأقسم لك أن هذا الصنع كاف لاقتله بكل حماس (يسير نحو الخروج ـ يدخل هيليكون)

المشهـد الثانى

هيليكــون ـ كنت أبحث عنك ، يا شيريا • فان كاليكولا ينظم هنا اجتماعا صغيرا مع أصدقائه يجب أن تنتظره (يلتفت نحو سيبيون) أما أنت فلا حاجة لنا بك أيها الملاك • فلك أن تنصرف

سيبيـــون ـ (يلتفت نحو شيريا وهو خارج) شيريا

شيــريـا ـ (بملاطفة كبيرة) نعم ، سيبيون •

سيبيـــون ـ حاول أن تفهم

شيــريـا ـ (بنفس اللهجة) لا ، يا سيبيون (يخرج سيبيون وهيليكون)

المشهـد الثالث

(صليل أسلحة فى المعابر • يظهر حارسان من اليمين يقودان الشيخ النبيل والنبيل الاول وعليهما علامات الذعر)

النبيل الاول ـ (وهو يحاول التكلم بصلابة) ألا تقول لى ماذا يريدون منا فى مثل هذه الساعة من الليل ؟

الحـــارس ـ أجلس هناك (يشير الى مقاعد اليمين)

النبيل الاول ـ اذا كانوا عازمين على قتلنا مثل الاخرين • فلا فائدة فى كل هذه الخزعبلات

الحـــارس ـ أجلس هنا أيها البغل الشالخ

الشيـــخ ـ لنجلس · من البين أن هذا الرجل لا يعلم شيئا ·

الحـــارس ـ نعم يا جميلتى ، بين جدا (يخرج)

النبيل الاول ـ كان من الضرورى أن نسرع فى العمل · أما الان فلا ينتظرنا الا التعذيب ·

المشهـد الرابع

شيـــريـا ـ (يجلس فى هدوء ورصانة) ماذا جرى ؟

الاول والشيخ ـ (مع بعضهما بعض) فقد افتضحت المؤامرة ·

شيـــريـا ـ ثم ماذا ؟

الشيـــخ ـ (يرتعش) التعذيب

شيـــريـا ـ (وهو ملازم هدوءه) أتذكر ان كاليكولا أعطى ثمانين الف سسترس لرجل ارتكب سرقة لانه لم يقر بسرقته بالرغم من صارم التعذيب

النبيل الاول ـ أيغير ذلك شيئا من حالتنا ؟

شيـــريـا ـ كلا · ولكنه دليل على أن الشجاعة واجبة · فمن الواجب أن تقرأ لهذا الامر حسابه (يخاطب الشيخ) أيحرجك أن تمنع شدقيك من التضارب ببعضها بعض على هذه الصورة ؟ مذا دوى أستنكفه

النبيل الاول ـ كفانا جدالا · ان حياتنا فى خطر

شيـــريـا ـ (بدون أن يبدى حراكا) أتعرفان الكلمة المحبوبة لدى كاليكولا ؟

الشيـــخ ـ (وهو على وشك ان يبكى) نعم · فهو يقولها للجلاد : « أقتله رويدا رويدا ليشعر بانه يموت »

شيـــريـا ـ لا بل هى أجمل مما قلت · فهو يقول بلهجة جدية بعد قتل ضحيته : « ان ما اعجب به فوق كل شىء هو انى لا يؤثر فى شىء »

النبيل الاول ـ أتسمعان ؟ (صليل أسلحة)

شيـــريـا ـ هذه الكلمة تنم عن ضعفى

الشيـــخ ـ أيتعبك كثيرا أن تدع الفلسفة جانبا · أنى أستنكفها كثيرا · (يدخل عبد من الصدر يحمل أسلحة) (فيضعها فوق مقعد)

شيـــريـا ـ (وهو لم يره) لنعترف على الاقل أن لهذا الرجل تأثيرا عظيما • فهو يحمل على التفكير ، يحمل جميع الناس على التفكير ••• والشعور بالخوف وبعدم الامن هو من دواعى التفكير ••• ولهذا السبب تكاثرت الاحقاد ضده

الشيـــخ ـ (وهو يرتعش) أنظر

شيـــريـا ـ (يلتفت فيرى الاسلحة • فتتغير لهجته قليلا) قد يكون الحق معك

النبيل الاول ـ كان علينا أن نسرع فى العمل • لقد تماطلنا كثيرا •

الشيـــخ ـ ولكن هذا جنون ••• أنا لا أحب أن أموت •

(يقف ويحاول أن يهرب • يدخل حارسان ويجبرانه بعنف على البقاء ، بعدما يصفعه احدهما • يتصاغر النبيل الاول على مقعده • يقول شيريا كلمات لا تسمع ودفعة واحدة تسمع موسيقى حامظة ، راقصة بآلات النفخ والاسطوانات • يسكت النبلاء وينظرون • يظهر خيال كاليكولا وراء ستار فى بدلة رقص نسائية قصيرة وعلى رأسه زهور وهو يحاكى حركات رقص مزرية ، ثم يتوارى وعلى اثر هذا المنظر يقول أحد الحراس بصوت جهورى)

الحـــارس ـ أنتهت الحفلة

(وفى هـذه الاثناء تدخل سيزونيا فى صمت ، وراء مشاهدى المنظر ثم تأخذ تتكلم بلهجة مجردة يقفز لها الممثلون

المشهد الخامس

سيـزونيـا ـ كلفنى كاليكولا بأن أقول لكم انه كان يدعوكم لحد الان للنظر فى شؤون الدولة ، وأما اليوم انه دعاكم لتعيشوا معه فى هذا الجو الفنى المؤثر (سكوت ثم تستمر بنفس اللهجة) وأضاف قائلا انه يقطع رأس كل من لم يدخل فى هذا الجو ولم يتأثر (يسكتون) أعتذر اذا رأيتم منى هذا الالحاح ، ولكنه من واجبى أن أسألكم هل أستحسنتم هذه الرقصة •

النبيل الاول ـ (بعد تردد) انها جميلة يا سيزونيا

الشيـــخ ـ (باندفاع كبير) آه ! جميلة ، جميلة ، جدا يا سيزونيا •

سيـزونيـا ـ وأنت يا شيريا ؟

شيـــريـا ـ (ببرودة) انها الفن بعينه

سيـزونيـا ـ حسنا جدا • هكذا يمكن لى أن أبلغ رأيكم لكاليكولا

المشهد السادس

(يدخل هيليكون)

هيليكون ـ قل ، لى شيريا ! أصحيح أنه كان الفن بعينه ؟

شيريا ـ فى ناحية ، نعم

هيليكون ـ فهمت ··· أنت رجل قوى جدا ، يا شيريا · مغالط كالرجل الفاضل · لكن قوى حقيقة قوى · أما أنا لست قويا · ومع هذا فأنى لا أدعكم تمسون كايوس بسوء · حتى ولو كان فيه رغبته ·

شيريا ـ أنى لا افهم شيئا من هذا الخطاب · ولكنى أشكرك على اخلاصك · فأنا أحب الخدم الاوفياء ·

هيليكون ـ ها أنت تظهر اعتزازا كبيرا · ايه ؟ نعم ، أنا فى خدمة مجنون · وأنت فى خدمة من أنت ؟ أفى خدمة الفضيلة ؟ هأنا قائل لك رأيى فى الفضيلة · فأنا ولدت عبدا· ولذا فانى رقصت أولا على نغم الفضيلة تحت لذع السياط ، يا أيها السيد الفاضل · وكايوس لم يملأ رأسى بالخطب · فقد عتقنى وأخذنى فى قصره وبهذه الصورة فانى استطعت ان أنظر اليكم يا معشر الافاضل النبلاء · فرأيت أن وجوهكم بشعة قبيحة ، وروائحكم كريهة ، تلك الرائحة التى تلازم من لم يتذوقوا الالم ولم يقتحموا الاخطار · رأيت المرتدئين بالنبل والفقر فى قلوبهم ، والبخل على وجوههم والتعطل فى يدهم · أنتم حكام ؟ يا من تدعوه احتكار الفضيلة ، يا من تحلمون بالقصاص كما تحلم العذراء بالغرام ، بالرغم من أنكم فى الذعر والجزع بدون أن تنتبهوا الى أنكم عشتم فى الكذب طيلة حياتكم ··· تريدون الحكم على من قضى حياته يئن من مقاساة الالآم ، ومن يدمى كل يوم جسده بآلاف من الجراح الجديدة ؟ سأتلقى أنا ضرباتكم أولا ، تأكد من ذلك ! احتقر العبد ما شئت ، يا شيريا ! فهو فوق فضيلتك حيث أنه يستطيع أن يحب هذا السيد البائس ، وانه يحميه من أكاذيبهم ، ومن أفواهكم السفيهة ···

شيريا ـ أنت تنهال فى البلاغة ، يا عزيزى هيليكون · حقاً أنك كنت أحسن ذوقا فيما مضى

هيليكون ـ متأسف ، حقا ··· هذه نتيجة ملازمتكم ··· ولكن لا تخف · فأنى أسترجع شخصيتى · ولا أزيدك الا كلمة واحدة ··· انظر ··· أرايت هذا الوجه ؟ حسنا ... أنظر اليه مليا · حسنا جدا · الان تعرفت الى عدوك (يخرج)

المشهـد السابع

شيـــريـــا ــ ولنسرع الان فى العمل • أبقيا هنا أنتما الاثنين • ففى هذا المساء يناهز عددنا المائة (يخرج)

الشيـــــخ ــ أبقيا هنا ، أبقيا هنا ، بودى أن أنصرف ، أنا ••• (حركة شم) فرائحة الموت هنا

النبيل الاول ــ أو رائحة الكذب (بحزن) قلت أن الرقصة جميلة

الشيـــــخ ــ (متسامح) أنها كانت جميلة ••• فى ناحية
(يدخل كثير من النبلاء والفرسان بسرعة كبيرة)

المشهـد الثامن

النبيل الثانى ــ ماذا هناك ؟ أعندكم خبر ؟ الامبراطور أرسل فى طلبنا

الشيـــــخ ــ (فى غير انتباه) قد يكون ذلك من أجل الرقصة

النبيل الثانى ــ أية رقصة ؟

الشيـــــخ ــ نعم ، نعم ، الجو فنى

النبيل الثالث ــ قيل لى أن كاليكولا مريض جدا

النبيل الاول ــ نعم انه مريض

النبيل الثالث ــ ماذا أصابه؟ (بفرح شديد) بحق الآلهة ، هل هو فى خطر موت

النبيل الاول ــ لا أظن ، لان مرضه فتاك بغيره

النبيل الثانى ــ فهمت • وهلا يكون لـه مرض أقـل خطورة وأكثر نفعـا بالنسبة الينا ؟

النبيل الاول ــ لا فان مرضه هذا لا يطيق منافسا له • على اذنكـم •• يجب أن أرى شيريا (يخرج) ــ (تدخل سيزونيا ••• سكوت قصير)

المشهـد التاسع

سيـزونيـا ــ (بلهجة لا حماس فيها) كاليكولا متألم بمعدته • فقد تقيأ دما • (يلتفت النبلاء حولها)

النبيل الثانى ــ أيها الآلهة ! انى أعد بدفع مائتى ألف سسترس لخزينة الدولة اذا برىء كاليكولا من مرضه

النبيل الثالث ــ (بمبالغة) يا جوبيتار ! خذ حياتى بدلا من حياته (يكون كاليكولا قـد دخل منـذ حـين ووقف ينصت الى حديث الجماعة)

كاليكولا ـ (وهو يتقدم نحو النبيل الثانى) قبلت صدقتك ، يا لوسيوس . أشكرك . سيقدم قابضى العام غدا الى بيتك (يتوجه نحو النبيل الثالث ويقبله) لا يمكن أن تتصور كم أنا متأثر (سكوت ثم بحنان) أنت تحبنى اذن ؟

النبيل الثالث ـ (مقتنع) قيصر ! ليس لدى شىء أتردد فى التضحية به من أجلك فى الحين

كاليكولا ـ (يقبله ثانية) أنت تبالغ ، يا كاسيوس . فانا غير جدير بكل هذا الحب (اشارة احتجاج من كاسيوس) لا ... قلت لك لا . فانى غير أهل لذلك . (ينادى بحرسين) أحملاه . (الى كاسيوس بتلطف) اذهب أيها الصديق ، وتذكر أن كاليكولا قد وهبك قلبه

النبيل الثالث ـ (فى شىء من الحيرة) ولكن ... الى أين ؟

كاليكولا ـ الى الموت ، يا عزيزى ، الى الموت . فقد وهبت حياتك من أجل حياتى . وقد أخذت أحس بتحسن فى حالتى الان ، وذهب من فمى طعم الدم المرعب الذى كنت أشعر به . فقد شفيتنى . فهل أنت الان سعيد ، يا كاسيوس اذا استطعت أن تضحى بحياتك من أجل غيرك ، عندما يدعى هذا الغير كاليكولا هأنا مستعد من جديد لجمع الحفلات (يسير النبيل الثالث وهو يعاند ويصيح)

النبيل الثالث ـ لا أريد ... كنت أمزح .

كاليكولا ـ (سابحا فى خياله) (وفى وسط صراخ النبيل) وعما قريب تكون طرق البحر مغطاة بالزهور ، ويحمل النساء بدلات من الاقمشة الخفيفة . سماء رحبة وجميلة يا كايوس ! بسمات الحياة ! (كاسيوس على وشك الخروج ـ تدفعه سيزونيا بلطف ـ يلتفت كاليكولا ويغير لهجته دفعة واحدة) لو كنت تحب الحياة لما جازفت بهذا الاستخفاف ، يا صديقى (يجرون كاسيوس نحو الخارج ـ يرجع كاليكولا الى المائدة) واذا خسر الانسان وجب عليه أن يدفع (سكوت) تعالى سيزونيا (يلتفت نحو الاخرين) بالمناسبة خطرت لى فكرة وأود أن أسألكم رأيكم فيها . فان ملكى كان سعيدا بافراط لحد اليوم . لا طاعون عالمى ولا دين ظلوم ولا حتى انقلاب دولى . وبالجملة لم يحدث فيه شىء من شأنه أن ينتقل بكم الى الخلود . وهذا هو السبب الذى صرت من أجله أعوض حذر القدر ... أردت أن أقول ...

لا أدرى هل فهمتم مقصدى (ضحكة قصيرة) أقوم أنا مقام الطاعون (يغير لهجته) اسكتوا هذا شيريا ٠٠٠ دورك الان يا سيزونيا (يخرج يدخل شيريا والنبيل الاول)

المشهد العاشر

(تتقدم سيزونيا بسرعة لملاقاة شيريا)

سيزونيا ـ مات كاليكولا ٠ (تلتفت كأنها تبكى ٠ وتنظر الى الاخرين فيسكتون ـ تبدو علامات الذعر على جميع الوجوه ، لكن لاسباب مختلفة)

النبيل الاول ـ وهل أنت واثقة من صحة خبر هذا المصاب ؟ فهذا غير ممكن ٠٠٠ انه كان يرقص منذ حين

سيزونيا ـ صحيح ٠ فقد قضى عليه اجهاد نفسه هذا (يذهب شيريا بسرعة من أحد الحاضرين للآخر ثم يلتفت نحو سيزونيا ٠ سكوت عام ٠ تخاطبه سيزونيا بهدوء) ألا تقول شيئا

شيريا ـ (بنفس الهدوء) أنه لخطب عظيم ، يا سيزونيا (يدخل كاليكولا بسرعة ويذهب نحو شيريا)

كاليكولا ـ لقد أتقنت دورك يا شيريا (يلف لفة حول نفسه وينظر الاخرين فى انقباض لقد أخفقنا (يخاطب سيزونيا) لا تنسى ما أوصيتك به (يخرج)

المشهد الحادى عشر

(سيزونيا تنظر اليه فى صمت وهو خارج)

الشيخ ـ (فى رجاء لا يعرف الكلل) أيكون مريضا ، يا سيزونيا ؟

سيزونيا ـ (تنظر اليه فى حقد) كلا ، يا جميلتى ٠ لكنك تجهل أن هذا الرجل لا ينام أكثر من ساعتين فى الليلة ، وانه يقضى بقية ليله هائما بين أروقة القصر عاجزا عن الظفر براحته٠ ان الامر الذى تجهله ، ولم تتساءل عنه قط ، هو ما يشغل بال هذا الرجل ، طيلة الساعات القاتلة التى تمرمن وسط الليل حتى مطلع الفجر ٠٠٠ مريض ! ٠٠٠ كلا ليس هو بالمريض الا اذا اخترعت اسما واكتشفت أدوية للاقراح التى تلتهب بها روحه ٠

الشيخ ـ (كما لو أنه تأثر) الحق معك يا سيزونيا ٠ فنحن لا نجهل أن كايوس ٠٠

سيزونيا ـ (بأكثر سرعة) لا · لا تجهلون · ولكنكم مثل غيركم من عديمى الشخصية · فانكم لا تتحملون من قويت شخصيتهم · شخصية قوية ! أليس هذا الذى يضايقكم ؟ فتسمون ذلك مرضا · ولهذا يرتاح العاميون ولا يجدون فيه مبررا لانفسهم (فى لهجة اخرى) هل عرفت الحب ولو مرة واحدة يا شيريا ؟

شيريا ـ (وقد استعاد شخصيته) فاتتنا سن تعلم هذا الحب ، يا سيزونيا · ثم أنى لا أظن أن كاليكولا سوف يترك لنا الوقت لاجراء هذه التجربة

سيزونيا ـ (وقد استعادت هدوءها) صحيح · (تجلس) لقد كدت أنسى تعليمات كاليكولا · أنتم تعملون أن هذا اليوم ، يوم مخصص للفن

الشيخ ـ حسب الرزنامة ؟

سيزونيا ـ لا بل حسب ارادة كاليكولا · فقد دعا بعض الشعراء ، وسيقترح عليهم أن يرتجلوا قصائد فى موضوع معين · ورغبته هى أن يشارك الشعراء من بينكم · وقد ذكر بالخصوص الشاب سيبيون ومتلوس ·

متلوس ـ ولكننا لم نستعد لهذا العمل

سيزونيا ـ (كأنها لم تسمع ، وبصوت مجرد) وستوزع جوائز ، طبعا · كما ستوزع عقوبات (الجماعة يتأخرون قليلا) ولى أن أقول لكم ـ وهذا حديث بيننا · أن هذه العقوبات ليست خطيرة جدا · (يدخل كاليكولا فى غم لم يسبق اليه)

المشهد الثانى عشر

كاليكولا ـ هل حضر كل شىء ؟

سيزونيا ـ كل شىء (الى أحد الحرس)أدخلوا أيها الشعراء

(يدخل الشعراء مصطفين اثنين اثنين ويمشون بخطى عسكرية ـ يذهبون نحو اليمين)

كاليكولا ـ والآخران ؟

سيزونيا ـ سيبيون ومتلوس (يلتحق كلاهما بالشعراء · يجلس كاليكولا فى الصدر نحو اليسار مع سيزونيا وبقية النبلاء ، سكوت قصير ·)

كاليكولا ـ الموضوع : الموت · مدة التحضير : دقيقة (يكتب الشعراء بسرعة على صفائحهم)

الشيـــــخ ـ وممن تتركب اللجنة ؟

كاليكـــولا ـ منى أنا ... أليس فى هذا كفاية ؟

الشيـــــخ ـ آه . حسنا . كفاية وزيادة

شيـــريـــا ـ أتشارك فى المسابقة يا كايوس ؟

كاليكـــولا ـ لا فائدة . فقد نظمت قصيدتى فى الموضوع من زمان .

الشيـــــخ ـ وأين نجدها ؟

كاليكـــولا ـ أنى أنشدها كل يوم حسب طريقتى (تنظر اليه سيزونيا فى جزع) (يخاطبها بعنف) ألا يعجبك وجهى ؟

سيـــزونيــا ـ (بغاية اللين) أسألك العفو يا كايوس .

كاليكـــولا ـ آه ! انى لا أحب التذلل ، أرجوك . أنى أبغض التذلل . أنت صعبة التحمل عادة أما اذا زدت التذلل ! (سيزونيا تبتعد رويدا رويدا ... يخاطب شيريا) استمر فهى القصيدة الوحيدة التى نظمتها . ولكنها كافيـة لاقامة الدليل على أنى الفنى الوحيد الذى عرفته روما ، الفنى الوحيد ، ياشيريا ، الوحيد الذى وفق بين فكره وعمله .

شيـــريـــا ـ هذه مسألة تتعلق على الحكم . لا غير

كاليكـــولا ـ هو ذاك . فالاخرون يؤلفون لانهم تعوزهم السلطة . أما أنا فلا حاجة لى بمؤلف فانى أعيش (بعنف) وأنتم ، هل أنتم مستعدون ؟

متلـــوس ـ نعم . على أتم استعداد فيما أظن

الشعـــراء ـ نعم .

كاليكـــولا ـ حسنا . استمعوا الى جيـدا . ستخرجون من صفوفكم . سأصفر ، وعندها يشرع الاول فى قراءة قصيده . وعلى اثر ما أصفر ، فانه يسكت ويليه الثانى ، وهكذا دواليك. والناجح هو من لا أقاطعه بالتصفير . تهيئوا (يلتفت نحو شيريا ويخاطبه همسا) يجب النظام فى كل شىء ، حتى فى الفن (تصفير)

الشاعر الاول ـ أيهـا الموت ، هناك من وراء الشاطىء المظلم ... (تصفير ينتقل الشاعر الى اليسار وهكذا يفعل الآخرون ـ موقف ميكانيكى)

الشاعر الثانى ـ الملائكة الثلاثة ، فى مكانها (تصفير)

الشاعر الثالث ـ أناديك ، يا موت (تصفير عنيف ـ يتقدم الرابع ويتهيـأ للخطابة ـ يصفر كاليكولا قبل أن يشرع فى الكلام)

الشاعر الرابع ــ عندما كنت صبيا

كاليكـــولا ــ لا ! أى علاقة بين شباب صبى والموضوع ؟ فاين الموضوع من فضلك ؟

الشاعر الخامس ــ لم أنته بعد يا كايوس ٠ (تصفير حاد)

« **السادس** ــ (يتقدم ويحنحن) يتقدم فى غير هوادة (تصفير)

« **السابع** ــ رثاء ٠٠٠ (تصفير متقاطع) (يتقدم سيبيون بدون صفيحة)

كاليكـــولا ــ دورك يا سيبيون ٠ ألا تحمل صفيحة ؟

سيبيـــون ــ لا حاجة لى بها

كاليكـــولا ــ هيا ، اسمعنا (يمضغ صفارته)

سيبيـــون ــ (يقترب كثيرا من كاليكولا وهو غير منتبه اليـه ، وفى شىء من التعب)

أبعد السعادة التى تدنس البشر

أيتها السماء المبتلة بأشعة الشمس

أيتها الحفلات الوحشية ٠٠٠ هذيانى هذا بدون رجاء ٠٠٠

كاليكـــولا ــ كفى أرجوك ، فأنت صغير السن جدا ولم تتعرف بعد الى دروس الموت

سيبيـــون ــ (يحدق نظره فى كاليكولا) كنت صغيرا جدا لما فقدت والدى

كاليكـــولا ــ (يغير وجهه بعنف) هيا ! نظموا صفوفكم ٠ فشاعر مزيف هو عقاب صارم بالنسبة لذوقى ٠ كنت أمنى النفس الى الان على أن أجعلكم حلفائى وكنت أتصور أنكم الحصن الاخير للدفاع عنى ٠ لكن آمالى واهية وسأحشركم فى صفوف أعدائى ٠ الشعراء ضدى ٠ فهى النهاية حينئذ ٠٠٠ أخرجوا فى نظام محكم ٠٠٠ ستمرون أمامى وأنتم تلحسون صفائحكم لتمسحوا منها آثار فضائعكم ٠ تهيئوا الى الامام (تصفير موزون) (الشعراء يمشون بخطى عسكرية ٠ يخرجون من اليمين وهم يلحسون صفائحهم ــ يتكلم كاليكولا بصوت خفى للغاية) وليخرج جميع الحاضرين (على الباب يوقف شيريا النبيل الاول من كتفه)

سيـزونيـا ــ ماذا قال ؟

كاليكـــولا ــ شيئا فوق فهمك

سيـزونيـا ــ فيم تفكر ؟

كاليكـــولا ــ فى هذا ، وفيك أيضا ، لكن لا فرق

شيريا ـ لقد حان الوقت (سمع سيبيون هذه الجملة ، يتردد على عتبة الباب ثم يتجه نحو كاليكولا)

كاليكولا ـ (بخبث) ألا تتركني وشأني ، كما يفعل الآن أبوك ·

المشهد الثالث عشر

سيبيون ـ هيا ، كايوس · كل هذا لا يجدى نفعا · فأنا أعلم أنك أوقفت بعد اختيارك

كاليكولا ـ دعني

سيبيون ـ سأتركك فعلا ، لانى أظن أنى فهمتك · فلم يبق مخرج لا بالنسبة اليك ولا بالنسبة الى ، أنا الذى أشبهك · وسأذهب بعيدا للبحث عن أسباب كل هذا (سكوت ينظر الى كاليكولا ثم بلهجة مؤثرة) وداعا يا عزيزى كايوس ولا تنس ، عندما ينتهى كل شىء ، أنى كنت أحبك (يخرج ـ كاليكولا ينظر اليه ـ حركة ـ لكنه ينتفض بعنف ويرجع نحو سيزونيا)

سيزونيا ـ ما بك ؟

كاليكولا ـ (ينظر اليها) سيبيون ذهب ··· لقد قضيت على الصداقة ··· وأنت ··· أنى أتساءل لماذا أنت باقية هنا

سيزونيا ـ لانى أروق لك

كاليكولا ـ كلا ! لو أمرت بقتلك ··· ربما أفهم ···

سيزونيا ـ قد يكون حلا من الحلول · مر اذن بقتلى · ولكن قل لى : ألا تستطيع أن تطلق لنفسك العنان ولو لحظة واحدة وان تعيش فى حرية ؟

كاليكولا ـ لقد مرت على بضع سنوات وأنا أتمرن على الحياة فى حرية

سيزونيا ـ ليس هذا ما أقصد · أفهمنى جيدا ··· فقد يكون من أجمل الاشياء أن يعيش الانسان وأن يحب فى صفاء قلب

كاليكولا ـ كل شخص يظفر بصفاه بما يستطيع · وأنا ظفرت به فى تتبع ما هو جوهرى · وكل هذا لا يمنع من أنى قادر على الاذن بقتلك (يضحك) ويكون فى هذا الصنيع تتويج حياتى (يقف ويأخذ يدور والمرآة على محورها · يطوف حولها مدلى اليدين بدون حركة كالحيوان) عجيب ! أنى أشعر بعزلة عندما أكف عن القتل · فالاحياء غير كافين لتعمير الكون وطرد القلق · عندما تكونون كلكم حاضرين ، فانكم تجعلوننى أحس بفراغ ليس له حد ولا أستطيع النظر

اليه ··· وانى لا أشعر بانبساط الا بين جثث ضحاياى (يتجه نحو الجمهور منحنيا ، قليلا الى الامام · ولم يشعر بوجود سيزونيا) فهم حقيقيون · أنهم مثلى · أنهم ينتظروننى ويلحون على للالتحاق بهم · ولى حديث طويل مع هذا وذاك ممن قفزوا نحوى صارخين متوسلين لاعفو عنهم ··· وأمرت بقطع ألسنتهم

سيزونيا ـ تعال ··· امتد الى جانبى · ضع رأسك على ركبتى (كاليكولا يمتثل) ها أنت تستريح الان الهدوء شامل

كاليكولا ـ الهدوء شامل ! أنت تبالغين · ألا تسمعين صليل الحديد ؟ (يسمع الصليل) ألا تحسين بهذه الادواء المتعددة الدالة على أن عين الحقد لا تنام ؟ (دوى فى الخارج)

سيزونيا ـ وهل أحد يستطيع ؟

كاليكولا ـ نعم · الحماقة

سيزونيا ـ أنها لا تقتل ، بل تحمل على التعقل ·

كاليكولا ـ انها قاتلة ، يا سيزونيا ! انها فتاكة عند ما تشعر بأنها أهينت · وسوف لا يغتالنى من قتلت أبناءهم ، او آباءهم ، لانهم فهموا وصاروا معى · وقد بقى الطعم فى أفواههم · أما الاخرون ، أولئك الذين أستهزأت بهم ، وجعلتهم محل سخرية وازدراء ، فانى مجرد من كل سلاح ازاء بطلانهم

سيزونيا ـ (بحدة) نحن ندافع عنك · فان عدد من يحبونك لم يزل كبيرا ·

كاليكولا ـ عددكم فى تضاءل مستمر · فقد فعلت كل ما يلزم لاصل الى هذه النتيجة · ولنعترف بالحقيقة على كل حال · فلم تقف الحماقة وحدها فى وجهى لمقاومتى لانى وضعت أيضا فى صف اعدائى الوفاء والشجاعة لانهما ينشدان الحياة فى سعادة ·

سيزونيا ـ لا ! لا يقتلونك · فان السماء ستنزل عليهم نارا تحولهم رمادا قبل أن تمتد اليك يدهم

كاليكولا ـ من السماء ؟ لا وجود للسماء أيتها المسكينة (يجلس) ولكن من أين هذا الحب المتدفق دفعة واحدة ؟ هذا ليس فى اتفاقياتنا

سيزونيا ـ (وقد وقفت وأخذت تمشى) ألا يكفى أن أراك تقتل غيرك حتى أعلم أنك ستقتل بدورك ؟ ألا يكفى أن أستقبلك فى وحشيتك وأن أشتم الى رائحة الجريمة عندما أضعك على

صدرى ! فأنى أشاهد فيك كل يوم موت صفة من صفات البشر (تلتفت نحوه) أنى متقدمة فى السن وعلى وشك أن أصبح بشعة . هذه حقيقة أعلمها . غير أن اهتمامى بك أكسبنى نفسية جعلتنى لا أكترث بعدم حبك لى . وغاية ما أتمناه هو أن أراك فى صحة وعافية ، أنت الذى لم تزل طفلا . لان أمامك حياة كاملة او أى شىء تصبو اليه أكثر من حياة كاملة ؟

كاليكــولا ـ (يقف وينظر اليها) لقد طال بك المقام هنا

سيـزونيـا ـ صحيح ، ولكنك سوف تبقينى معك ، أليس كذلك ؟

كاليكــولا ـ لا أدرى . وانما أعلم سبب وجودك هنا .. فأنت هنا لتلك الليالى التى كانت فيها اللذة قوية والفرح معدودا وأنت هنا لكل ما تعرفين منى (يأخذها بين ذراعيه ويقشع بتلطف رأسها الى الـوراء) ... لم أبلـغ من العمر الان تسعا وعشرين سنة ... وهذا قليل ... ولكن فى هذه الساعة التى تبدو لى فيهـا حياتى طويلـة ، مثقلـة بالجثث ... كاملة ... بقيت أنت الشاهد الاخير ولا. طاقة لى أن أقاوم فى نفسى هذه المودة المخجلة نحو العجوز التى ستكونين .

سيـزونيـا ـ قل لى أنك تريد أن تستبقينى معك ! !

كاليكــولا ـ لا أعلم . غير أنى أشعر بأن هذه المودة المخجلة هى الاحساس الصافى الوحيد الـذى منت به على الحيـاة . (تتخلص سيزونيا من ذراعيه . كاليكولا يتبعهـا . تلقى ظهرها بصدره . يعانقها) ألا ترين من الاليق أن يزول الشاهد الاخير ؟

سيـزونيـا ـ هذا لا يهم . فأنا مسرورة بما قلته لى ... ولكن مـا المانـع فى أن أشاطرك هذه السعادة ؟

كاليكــولا ـ من قال لك أنى لست سعيدا ؟

سيـزونيـا ـ السعادة فضل . فهى لا تتغذى بالتهديم .

كاليكــولا ـ يوجد اذن نوعان من السعادة . وقد أخترت أنا نوع المجرمين . لانى سعيد ! فقد جاء وقت ظننت فيه أنى بلغت الدرجة القصوى فى الالم . والحقيقة أنـه من الممكـن أن يذهب الانسان الى أبعد من ذلك . ففى حدود هذه القارة سعادة جدباء ، ساحرة . أنظرى الى (تلتفت نحوه) انى انصحك يـا سيزونيا . رومـا بأسرها اجتنبت أن تتلفظ باسم دروزيلا طيلة عدة سنوات ، لان روما اغترت طيلة عـدة

سنـــوات • فالحـب غير كـــاف بالنسبـــة الى وذلـــك ما فهمته عندئذ ، وذلـك ما أفهـم اليـوم • وأنا أنظـر اليـك • فاذا أحب الانسان انسانا فليعيش معـه حتى الشيخوخة ••• وأنا عاجز عن مثل هـذا الحب • فمنظر دروزيلا عجوزا أشنع عندى من منظرها ميتـة • ويظن بعضهم أن الانسان يتألم لموت من يحب فى بحر يوم واحد • لكن آلامه أكثر من ذلك عمقا لانه يكتشف أن الحزن نفسه لا يدوم • فالالم نفسه محروم من الحس • فانت ترين أنه لم يكن لى أى عذر : لا بارق حب • ولا مرارة الحزن ، فلا مبرر لسلوكى • ولكننى أرانى اليوم أكثر حرية مما كنته منذ سنوات ، لانى تخلصت م نجبروت الـذكرى والغرور (يضحـك بقوة) أعلم أنـه لا شىء يدوم ! والعلـم بهذا الواقع! ••• ونحن اثنـان او ثلاثة فى التاريخ أجرينا حقيقـة هـذه التجربة • وبلغنـا هـذه السعادة الجنونية سيزونيا ، لقد عشت الى النهايـة أطوار فاجعـة عجيبة • وقد حان الوقت لينزل الستار بالنسبة اليك (يمر وراءها مرة اخرى ويضع ذراعه حول عنقها)

سيــزونيــا ـ (فى جزع) أهذه الحرية المرعبة ضرب من السعادة ؟

كاليكـــولا ـ (وهو يلح شيئا فشيئا بذراعه على عنق سيزونيا) ، تأكدى من ذلك يا سيزونيا فلـولاك لكنت رجـلا راضيا قنوعـا وبحريتى هذه تحصلت على التجبر الالهى الذى لا يدركه الا من يعيش وحيدا (يتحمس شيئا فشيئا وهو مستمر فى خنق سيزونيا وهى تستسلم بدون مقاومة • يتحدث اليها فى أذنها •) أعيش وأقتل وأتصرف فى سلطة المدمر الهادية • تلك السلطة التى تبدو سلطة الخالق الى جانبها كمحاكاة القردة • فهذا هـو ما يسمى بالسعادة • هـذا الانعتاق الذى لا يطاق ، وهذا الاحتقار لكل ما فى الكون • وهذا الدم ، وهذا الحقد حولى ، وهذه العزلة عديمة النظير ، عزلة الرجل الذى يحكم حياته كلهـا تحت نظره ، وهذا السرور المتناهى ، سرور المجرم الذى لا ينالـه عقاب ، وهذا المنطق الذى لا يرحم • هذا المنطق الذى يرمى بحياة البشر بين حجرى رحاه (يضحك) هذا المنطق الذى يرمى بك أنت أيضا يا سيزونيا بين ذينك الحجرين لاستكمل فى النهاية هذه العزلة الابدية التى أصبو اليها

سيــزونيــا ـ (تتخبط فى ضعف) كايوس !

كاليكـــولا ـ (فى حماس متزايد) لا ! لا رأفـة ولا حنـان • يجب أن تنتهـى ••• فالوقت ضيـق الوقت يفوت يا عزيزتـى سيزونيا ! (سيزونيا فى سكرات الموت • يجرها كاليكولا فوق الفراش حيث يدعها تسقط • ينظر اليها نظرة تائهة • ثم يقول بصوت صلب وأنت أيضا ، كنت مجرمة • ولكن القتل لا يأتى الا بالحل •

المشهـد الرابع عشر

(يطوف حول نفسه تائها • ويذهب أمام المرآة)

كاليكـــولا ـ أنت أيضا مجرم يا كاليكولا ، أكثر اجراما بقليل ، أو أقل بقليل ••• ولكن من يستطيع الحكم على فى عالم لا حاكم فيه ؟ ولا برىء ! (بلهجة الخوف ـ يلتصق بالمرآة) أنت ترى أن هيليكون لم يقدم ، وأنى لا اظفر بالقمر ، وانه من امر ما يمكن تجرعه أن يكون الانسان محقاً وأن يرى نفسه مضطرا للسير الى النهاية • لانى أخاف من النهاية • صليل أسلحة ! هذه البراءة تهىء انتظارها ، ! آه لو كنت مكانهم ! انى خائف ، خـائف • يا له من تقزز ، بعدمـا احتقرتهم جميعا ، وازدريت بهم ، أشعر بدورى بنفس الجبن ولكن لا بأس • فان الخوف لا يدوم أيضا • سأجد من جديد هذا الفراغ الكبير الذى تهدأ فيه النفس (يتأخر قليلا ثم يتجه نحو المرآة كأنه استعاد شيئا من هدوئه • يتكلم من جديد بصوت أقل علوا وأكثر انكماشا) كل شىء يلوح متشبعا ، ومع هذا فكل شىء سهل ••• لو ظفرت بالقمر ، لو كان الغرام كافيا ، لتغير كل شىء • ولكن أين يطفأ هذا الضمأ؟ وأى قلب ؟ وأى اله يكتسب بالنسبة اليه عمق البحيرة ؟ (يجثو على ركبتيه ويبكى) لا شىء فى هذه الدنيا ، ولا فى الاخرة ، يكون على قياسى • ومع هذا فأنا أعلم وأنت تعلم معى (يمد يديه نحو المرآة وهو يبكى) أنه يكفى أن يتحقق المستحيل لقد بحثت عنه فى أقاصى العالم ، وفى دواخل نفسى • فقد مددت يدى (يصيح) أمد يدى وألاقيك أنت ، أنت دائما أمامى، وأنا أبغضك بغضا شديدا • أنى لم أتبع الطريق التى كان على أن أتبعها • ولذا فانى لم أبلغ أية غايـة • وحريتى ليست الحريـة المنشودة • هيليكون ! هيليكون ! لا شىء مرة اخرى آه ! هذه الليلة ثقيلة ! سوف لا يقدم هيليكون • سنكون مذنبين الى الابد ! هذه الليلة ثقيلة مثل آلام البشر

(صليل أسلحة ـ همسات تسمع من المعابر)

هيليكـــون ـ (يقدم بسرعة من الصدر) نج نفسك ، كاليكولا ، نج نفسك (يد خفية تطعن هيليكون • يقف كاليكولا يمسك كرسيا منخفضا ويقترب من المرآة وهو يلهث ـ ينظر الى صورته ، كأنه يريد أن يقفز الى الامام وأمام حركة صورته المقابلة يبعث الكرسى على المرآة بعنف وهو يصيح)

كاليكـــولا ـ الى التاريخ ••• يا كاليكولا ••• الى التاريخ (تنكسر المرآة ومن ذلك الحيـــن يدخل المتآمرون من كل جـانب حاملين الاسلحة • يواجههـم كاليكولا بضحكة جنونية • يطعنه الشيخ من خلف • ويطعنـه شيريا فى وجهـه • تتحول ضحكة كاليكولا الى قهقهة موت • كلهم يطعنونه وفى قفزة أخيرة يقول كاليكولا ضاحكا صارخا : أنى ما زلت حيا ٪

ـ ستـــار ـ

« انتهـى »

*

اصداء الفكر

• حل الاستاذ روبرت برنشفيك بتونس فى أوائل الشهر لالقاء دروس على طلبة الجامعة التونسية ودار المعلمين العليا ، وستمتد اقامة الاستاذ برنشفيك الى آخر شهر مارس يقدم أثناءها محاضرتين على منبر دار الثقافة عن (المحاسبى) و (ابن رشد) .

• نظم معهد قرطاج سلسلة من المحاضرات الفلسفية طيلة شهر مارس افتتحها الاب جوليفى بمسامرات حول فلسفات جان بول سارتر ومرلو بنتى والبير كامو .

• أقام نادى أبى القاسم الشابى ندوة عن أبى القاسم الشابى يوم السبت 16 مارس بقاعة الافراح بالوردية شارك فيها جمع من ألادباء والشعراء .

• بشرى للادبـــاء

يقوم الاستاذ محمد المرزوقى هذه الايام بنشاط كبير ، فقد علم القراء ان الشاعر الاديب قدم للطبع ديوانه (بقايا شباب) وكتابا ضخما عن مدينة قابس ، وبشرنا الاستاذ المرزوقى انه على وشك طبع مجلد ضخم عن شاعر القيروان (الحصرى) : حياته ـ تراثه .

وقد حقق الاستاذ محمد المرزوقى بالاشتراك مع الاستاذ الجيلانى بالحاج يحيى ديوان الحصرى (اقتراح القريح واجتراح الجريح) وهو مرثية كبرى مرتبة على حروف الهجاء بكى فيها الشاعر ابنه عبد الغنى ـ ولا يخفى على ألادباء ما ستحتله هذه المرثية من مكانة فى أدب الرثاء ، وها نحن نشوق القراء لكتاب الاستاذين المرزوقى وابن الحاج يحيى ونقدم لهم قطعة من رثاء الحصرى :

وفيـت بعهـدى والليـالى غـوادر
وجـدت بنفسى والزمـان بخيـل
وآثـرك دينـى واقتنعت بمـا كفـى
فعشت عـزيـزا والغريب ذليـل
ومـا طمعـى أن يعرف القـوم همتـى
وسيـان فضـل عندهـم وفضـول
تظـافـرت الايـام حتـى غلبننـى
علـى واحـدى والخطب فيـه جليـل
جـرى دمعـه حتـى جـرت فيـه نفسه
وأقسم ظنـى انـه لقتيـل
ومهجتـه مـن مهجتـى فمدامعـى
سلـوهـن أى المهجتيـن تسيـل

عقيــق جــرى فــى الــدر حتــى اذا محــا
محــاسنــه عـــــاد الهـــلال أفـــول

• **وفــاة أستاذ الجيل ... لطفى السيد :**

مات يوم الثـلاثاء 5 مـارس 1963 الاستــاذ الجليل أحمــد لطفى السيــد الملقب باستاذ الجيل عن 91 عاما . وهو من كبار المفكرين فى العصر الحديث ومن ابرز الشخصيات العربية التى أسهمت فى مختلف الحركات القومية .

وقد ولد فى 15 نيسان سنة 1872 بقرية برقين مركز النسلاوين ، وتلقى تعليمه بمدارس المنصورة ثم دخل مدرسة الحقوق عام 1889 وتخرج منها سنــة 1893 وســافر الى استانبــول حيث تتلمـذ على أيـدى المصلـح الشهير جمال الدين الافغانى . ثم عاد الى ارض بلاده لينادى بانشاء جامعة اهلية وقد عين وكيلا لهذه الجامعة عام 1908 ثم مديرا لها عام 1925 حتى شهر مارس من عام 1931 عندما استقال احتجاجا على اقالة زميله الدكتور طه حسين من عمادة كلية الآداب . والمعروف عن استاذ الجيل انه أول من نادى بدخول الفتاة الجامعة .

ومما جاء فى تأبين طه حسين لاستاذه وزميله قوله :
« أما أنا فلم أجد الا شخصك الحبيب وحديثك العذب وصوتـك الحلـو ولكن روحك فى قلبى لا يفارقه وهل قلوب الناس الا قبور حية لامثالك من الاصدقاء والاحياء وعظام الرجال .

امض الآن الى جوار الله وسيصحبك قلبــى وعقلى وضميرى وستبقى ماثلا فى نفسى لا أنساك ولا يمكن ان أنساك حتى القاك فى الدار التى سبقتنى اليها ، وائـذن لى أن أستعير منك هـذين البيتين أودعك بهما كما ودعت بهما أنت مصطفى كامل رحمه الله :

انــــا الى اللـــه راجعـــون لقـــد
أصبــح حــزنــى عليــك ألــوانــا
حـــزن اشتيـــاق وحــــزن مرزئـــة
اذا انقضــى عـــاد كــالــذى كـــانـــا

وفى ذمة الله ايها الاب البر الشفيق وفى ذمة الله أيهـا الصديق الوفى الحميم وفى رضوان الله أيها الاستاذ العزيز الكريم »

• ۰۰۰۰ والدكتور بشر فارس :

كما توفى السكرتير العام للمجمع العلمى المصرى الدكتور بشر فارس عن 56 عاما • وهو من المهتمين بالفنون التشكيلية وله خاصة كتب فريدة فى نوعها فى التصوير الاسلامى تعتبر أحسن مرجع للمهتمين بالفنون الاسلامية ، كما له مسرحية بعنوان ـ مفرق الطريق ـ نالت شهرة فائقة ومثلت فى مسارح دول اوربا وله مسرحية اخرى اسمها ـ جبهة الغيب ـ

وتربط الفقيد بمدير هذه المجلة علاقة صداقة تمتنت عراها اثناء مؤتمرى الأدباء الثالث (القاهرة 1957) والرابع (الكويت 1958) وقد ارسل رحمه الله لمجلتنا نسخة من الرسالة المفتوحة التى توجه بها للرئيس السوفياتى خروتشوف والتى نشرت له فى مجلة آخر ساعة المصرية ونقلناها نزولا عند رغبته فى العدد 5 (فيفرى 1963 صفحة 92) • رحمه الله وعزاء للفكر والقلم •

• محاضرة فلسفية ۰۰ للدكتور أبوريده :

تحت أشراف كلية الشريعة واصول الدين القى ضيف تونس الدكتور عبد الهادى أبوريده بدار الثقافة محاضرة فلسفية هامة بعنوان ـ نقطة اتصال بين فلسفتين ـ استعرض فيها باسهاب أوجه المقارنة ما بين الفلسفة الاسلامية والفلسفة الغربية فى القرون الوسطى ومستشهدا على تأثر الاولى بالثانية بواسطة الترجمة التى حصلت عن طريق الاندلس وجنوب ايطالية • وقد كانت محاضرة قيمة جمعت بين المقارنة والاستشهاد والاستنتاج

• ۰۰۰۰ واخرى للاستاذ محمد ابراهيم :

ومن نشاط الاستاذ محمد ابراهيم الخطاط العربى المعروف القاءه لمحاضرة تاريخية تحدث فيها عن صحة الرسالة المنسوبة الى النبى (صلعم) والتى أرسلها الى المقوقس •

• التراث الثقافى فى اليمن

يتساءل عدد كبير من الادباء والباحثين عن مآل المخطوطات الكثيرة الموجودة فى مكتبات الامراء اليمنيين وزوايا المساجد بعد الثورة التى اكتسحت النظام القديم •

والمعلوم أن بعثة علمية كانت اوفدتها الجامعة العربية سنة 1951 برئاسة الدكتور خليل نامى لتدوين المخطوطات وتصويرها وتسجيلها وانها تمكنت من العثور على مخطوطات مالك بن أنس وأشعار المهلب بن أبى صفرة وتاريخ حروب بنى الاحمر وكذلك على « الايجاز لاسرار كتاب الطراز فى علوم البيان ومعرفة اعجاز القرآن » ودواوين للاعشى والاصمعى والحكيمى وكتاب « السياسة فى تدبير الرياسة المعروف بسبر الاسرار » المنسوب لارسطاطاليس ومخطوطات اخرى كثيرة •

فهل سيعتنى بهذا التراث الثقافى العربى ؟ هذا ما نرجوه وما تعلق عليه

عريض الآمال لنستكمل معرفتنا فى خصوص الادب العربى وخاصة الطور الجاهلى منه .

◆ تبصرة وذكرى

مظاهر الحياة العقلية فى افريقية والمغرب

ذلك هو عنوان المقال الذى كتبه الاستاذ محمد الحبيب بلخوجة فى مجلة « اضواء » التى تصدر بباريس راينا من المفيد نقله تتميما للفائدة مع شكر الصديق على عنايته بالتعريف بادبنا التونسى والمغربى الذى يكاد يكون مجهولا فى الشرق العربى

ان للمغرب العربى الكبير الذى يمتد من الضفة الغربية من وادى النيل الى ساحل المحيط الاطلسى فى بلاد المغرب الاقصى فيشمل طرابلس وتونس والجزائر ومراكش حتى ينتهى فى بعض الحقب من تاريخه الى جنوبى اسبانيا فيضم اليها بلاد الاندلس ، تاريخا هائلا ، وادوارا فعالة فى بقاء الحضارة الفكرية العربية الاسلامية .

ولئن تهيأ للمشرق بحث ما جد فى القديم والحديث فى اصقاع الشام وربوع العراق واطراف البلاد المصرية من روائع فكرية وادبية خالدة فان مثل ذلك لم يتهيأ بوجه عمل مطرد فى بلاد المغرب وتلاشت بسبب ذلك حلقات هامة من تاريخ الفكر والبيان العربيين ، وتدعو فى كثير من الاحيان الى الوقوف عليها حاجة الدرس وطبيعة البحث وضرورة تتبع الاشخاص والمذاهب فى نشاتها واختلاف اتجاهاتها فى تنقلاتها واطوارها .

وقد يقال ان ما فى الموسوعات والمعالم الشرقية يفى بذلك ويسد الثلمة والثغرة ولكنها الترجمات المقتضبة والكلمات المختصرة والانقال والروايات التى لا تدل على كبير معنى ولا تهدى الباحثين الى ما يطمحون اليه ويصبون من تحقيقات ووقوف على الاثار ومعرفة تامة بالظروف والاحوال المحيطة بالاشخاص او المذاهب .

لذلك اصبح لزاما ، لخدمة الفكر والادب المغربيين اللذين يمثلان تلكم الحلاقات المفقودة من التاريخ العام للادب العربى ، أن تتجه العناية الفائقة من الحكومات والمؤسسات والباحثين المؤرخين والعلماء والنقاد والادباء الى التراث المغربى . فتجليه وتوضح معالمه وتبسط قضاته وتعرف به أتم تعريف واكمله . وفى حسبى ان هذا واجب محتم يدعونا الى استدراك ما فات الباحثين والمؤرخين قبل . فالمقرى وابن سعيد والفتح بن خاقان وابن بشكوال وابن الابار وابن بسام وأمثالهم لم يلموا بكل شىء فيما دبجوا او صنفوا عن الاندلس والمغرب الاقصى . فقدتهم ببحث شخصية علميمة ادبية بارزة فى القرن الثامن مثل شخصية الاستاذ العلامة الغافقى الذى كان شيخ الترسل والكتابة فى عصره فلا تجد حوله غير كلمة اوردها ابن حجر فى الدرر الكامنة وجاءت بنصها تقريبا وبالحرف الواحد فى نفح الطيب ، وتبقى متلهفا للوقوف على مصادر اخرى فلا تجد شيئا لان ما كتب عن العصر المرينى ما زال اكثره مهملا محفوظا فى دور الكتب الخاصة والعامة لم تمتد اليه يد الباحثين ولا تناوله النشر الى الآن .

ويدعونا هذا الوضع الى العناية بصفة اكيدة جدا بنشر وتحقيق كل المخطوطات التى لدينا . وهذا العمل لا تقدر أهميته ولا يصور نفعه اذ هو أساس المعرفة الحقيقية بتراثنا وطريق استكمال الجوانب التى تلاشت او نفدت منه ، وسبيل التوصل الى تشخيص الحياة الفكرية والادبية فى بلادنا مختلف العصور والاطوار مع بعضها ونقدها بوجه علمى صحيح لا يقوم على الحدس والتخمين ولا ينبنى على الظن والوهم . ولو بذلت الجهود لتحقيق هذه الغاية الشريفة لتسنى لنا بكامل السهولة واليسر أن نعيد الى الاذهان تاريخ الحياة الفكرية العلمية والادبية فى بلادنا ببحث الاتجاهات التى نشات بها او تطورت فيها وبتصوير مراكز الحياة العقلية لدينا فى مختلف العصور وضبط ادوارها فى سبتة وفارس ومراكش وتلمسان وبجاية والقيروان والمهدية وتونس وطرابلس .

ولو نشرت المدارك للقاضي رياض والرسائل لخلف بن عبد العزيز الغافقي والدواوين لكثير من الشعراء في المغرب الاقصى او بالجزائر كابن الفكون واضرابه ، او بطرابلس كؤلئك الذين ذكرهم عرضا في رحلته التيجاني عند تقلبه في البلاد وذهابه مع اميره اللحياني • لتصورنا عن طريق هؤلاء العلماء والمؤرخين والكتاب والشعراء ماضيا مجيدا وادبا وريا •

هذا وقد كانت تونس بحكم موقعها وبحكم الظروف التي لابست الحياة الفكرية فيها من عصر الفتح الى الآن نقطة وصل بين المشرق والمغرب ومركز انبعاث للحياتين العلمية والادبية . وفيما بقي عن رجالها وتوارثته الاجيال عن الاجيال بالرغم عن المحن والظروف القاسية وعوادي الزمان واحداثه شاهد لها بقدم الصدق وبالدور الجليل الذي اضطلعت به في مختلف ميادين النشاط الفكري والادبي • ففي رسالة ابن الربيب المثبتة بنفح الطيب مثلا ما يدل على فضلها ويشهد ببارع آثارها وروائع فرائدها • وفي الرسالة التي تلقفتها القيروان عن مراكز الحياة العقلية بالمشرق واخذتها منها المهدية برهة من الزمان لتعيدها اليها عند ذهاب الدولة العلوية من افريقية وفيما اخذته عاصمة الحفصيين تونس عن اختها وسابقتها في المجد كعبة افريقية عاصمة الاغالبة القيروان ، وفيما شرعته مدينة أبي زكرياء والمستنصر من بعده من مناهل معرفة ورائق آداب ، براهين ناطقة بما لافريقية من تاريخ عزيز في الميدان العقلي تفيا ظلاله سكان هذه البلاد والمهاجرون اليها من أطراف البلاد العربية ومن الاندلس ايام محنتها .

وكيف نستطيع ان نتصور دور افريقية الفكري والادبي بين البلاد العربية حتى تكون آثارها ما بين مدرسة عدا عليها الزمان ومهملة مضاعة لا يخف الناس الى نشرها ولا الى التعريف بها

واذا كان المشرق قد ذكر تونس بابن ابي زيد القيرواني صاحب الرسالة واسد بن الفرات صاحب الاسدية وسحنون صاحب المدونة وبن عرفة صاحب الحدود والتفسير والابي تلميذه وابي الحسن القابسي صاحب الاسانيد ، وغيرهم من الفقهاء والايمة وعرفها في شخص ابن خلدون المهاجر اليه منها بتاريخه وفلسفته الاجتماعية وابن رشيق بعمدته والحصري بزهر آدابه وغيرهم فان لها آثارا لو اذاعتها ونشرتها لرفعت حكما ووضعا وشرعت سبيلا ومناهج واضافت معرفة واشادت بناء • وهل يغني احد من المؤرخين والمتادبين ممن تهمه اخبار هذه البلاد عن كتاب سمط اللآلء لابن رشيق او عن التاريخ الباشي لابن عبد العزيز أو عن كتاب التراجم للشيخ بيرم الرابع او عن الكناش الصغير للشيخ محمد بن الخوجة او كتاب التاريخ وذيله في التراجم لابن ابي الضياف او عن التاريخ الاحمدي لابن سلامة او مسامرات الظرين للشيخ محمد السنوسي او مجمع الدواوين في التراجم له •

وقد كان من ابناء تونس لغويون وعلماء • فقد ترك القزاز القيرواني كتاب الجامع في اللغة وكتابا آخر سلمه التعريض ، وصنف ابن ابي طالب القيسي من القيروان ايضا كتابا في معاني القرآن اسماه الهداية الى بلوغ النهاية . وفي القراءات منتخب الحجة والتبصرة • وفي الاحكام المأثور عن مالك وفي التفسير 10 اجزاء وفي الاصول كتاب الايضاح في الناسخ والمنسوخ . وجاء الشيخ ابن ابي الصلت المهدوي فوضع رسالة في العمل بلا طرب ووضع كتاب الوجيز في الهياة والف في والمنطق تقويم الذهن •

ولم يقعد من الفقهاء السابقين احد عن تحرير الرسائل والاقضية والفتاوى • هذا الى ما كان يكتب من تعاليق ويدون من ملاحظات حول تقريرات الشيوخ السابقين عليهم .

وظهر مترسلون مثل المناعي فاجاد وابدع وترك من تآليفه لونا فريدا لم يجاره فيه احد . وفي كل عصر من عهد الولاة زمن الفتح الى اليوم اسواق للشعر نافقة نستطيع ان نذكر فيمن نذكر من زعمائها ابا الحسن الحصري صاحب العشرات وابن سعيد وابا عثور والورغي وابن عبد لعزيز وماضورا والطوير والشافعي والغراب وقابادو وابن عاشور والمسعودي • ونحوهم غير قليل . فلو ان هبة من الاريحية هزت الهمم لرفعت الستائر عن غنائم وخرج المغرب العربي من وراء الحجب بوجهه الحقيقي مكلل الهام ، وبيده سرج ومصابيح الهداية •

• تكريـم ... وتغريـم

أشاعت مجلة « المصور » القاهرية أن مصلحة الضرايب بالجمهورية العربية المتحدة حجزت أثاث الأديب الكبير المأسوف عليه بيرم التونسى لان أولاده لم يتمكنوا من دفع الضريبة الواجبة !

والغريب أن هذه الاجراءات تقرر فى نفس الوقت الذى تحيى فيه الدولة ذكرى بيرم التونسى ويعلن عن اقامة تمثال له باحدى الساحات العمومية .

وهكذا يكرم بيرم التونسى ويغرم فى نفس الوقت ، يكرم أدبه وفنه ويغرم ذووه وورثته .

فهل كتب على هذا الاديب ألفذ أن يكون « فنان الغلبة » بحق ، فى حياته وبعد مماته !

ان القانون لا يخلو من قساوة ... ولكنه القانون ! .... طبعا .

• حركة النشر بالمغرب الاقصى

أفادت الزميلة « دعوة الحق » الفيحاء أنه صدر عن مطبعة القصر الملكى الجزء الثانى من كتاب « العز والصولة ، فى معالم نظم الدولة » تأليف مولاى عبد الرحمان بن زيدان حققه وعلق عليه الاستاذ عبد الوهاب بن منصور السكرتير الخاص لملك المغرب ، كما شرعت المطبعة الملكية فى طبع كتاب « نظم السلوك ، فى الانبياء والخلفاء والملوك » للشاعر المرينى أبى فارس عبد العزيز الملزوزى ويحقق الكتاب الاستاذ عبد الوهاب بن منصور

• الجـامعـى

اتصلنا بالعدد الاول من مجلة « الجامعى » لسان فرع الاتحاد العام لطلبة تونس ببيروت . وقـد وفق أخواننا الطلبة الى حد بعيد فى اخراج هـذه المحاولة الاولى المعبرة اصدق تعبير عن نضجهم واستقامة اتجاهم ورفعة مستواهم وعلو هممهم وأصالة وطنيتهم .

أما المواضيع فقد كانت متنوعة تناولت احياء الاعياد الوطنية ودراسة الحضارة التونسية وآثارها ومعالجة القضايا الاجتماعية ولم تهمل القصة ولا الشعر وتجلت الروح الطالبية المرحة السمحة فيما ورد بأخر العدد من نكت ومداعبات .

وتعريفا بهذا المجهود وتشجيعا نورد فيما يلى الافتتاحية التى صدرت بها اسرة « الجامعى » العدد الاول :

« الى براعم بلادى المنثورة سوسنا على بطاح لبنان ، هنا فى ضمير آسيا... لتنبت نبتا جديدا ... لتتفتق بالضوء والشعاع .. لتمتد فوق الفوق بعدما ترتكز تحت التحت ..

ألا خطوا على جبهتى أحرف الحق بسائل من قلوبكم ، خطوها بأقلام بريت من ضلوع اجيال ، فتتدفق من بين الاصابع العيون ... ويزرع فى التربة المحال ، فتتنهد بأعراف زيتون توزع البركة والحب والجمال .

نصبوا على صدرى صوارى لا تنهار ، متكأ لسماء بلادى ، صوارى تتحدى دورة الافلاك ، لا تثيرها الهزات ولا تفزعها البراكين ، لانها من صوان عربى ، لانها منكم . »

ونرجو فى الختام دوام الحياة للجامعى ولطلبتنا حياة جامعية موفقة .

• الموسيقـى التونسيـة

نشرت « المعرفة » الغراء الصادرة بدمشق عنوزارة الثقافـة والارشاد القومى مقالا عن الموسيقى التونسية فى عددها الثانى عشر (فيفرى 1963) بعنوان : « الموسيقى التونسية : لمحات عن تاريخهـا وصلتهـا بالموسيقى الشرقية » بقلم نجاة قصاب حسن . كما وردت فى نفس العدد اشارة الى المقال الذى نشرناه للاستاذ مصطفى الفارسى حول « اللاقصة »

• الجنس اللطيف يقسو على نفسه

فى رسالة الى « حوار » (العدد الثانى) قدمت الدكتورة سهير القلماوى عرضـا لمهرجـان الشعـر الذى نظمـه المجلس الاعـلى لرعايـة الفنـون والاداب بالجمهورية العربية المتحدة ـ وكنا رددنـا شيئا من اصدائه فـى اعـداد سابقة ـ وفى سياق الحديث عن الشعراء الذين شاركوا فى هـذا المهرجان وتقييم انتاجهم قالت :

« وقد مثل الجنس اللطيف (ولا أدرى لماذا ؟) طائفة من الشاعرات : جليلة رضا ونجاة شاور وروحية القلينى ونسرين عبد الحى وشريفة فتحى ولورا الاسيوطى ، وكان شعرهن فى اكثره نظما مدرسيا ، وكثر النقاش حول مؤلف هذا الشعر من يكون : الشاعرة أم ألف لها الغير . والامر لا يدعو الى نقاش فى الواقع ، لان مستوى الشعر النسائى فى هذا المهرجان لم يكن يستحق أى اهتمام . ولعل المستوى العام ـ كان كذالك ، لو لا نفحات من بعضهم كانت تأتى كالغيث للظمآن »

فهل كان مستوى الشعر ضعيفا حقا أم هل أن المرأة تقسو دائما على أختها المرأة ، واذا كان الثاني هو الاولى والاصح فاننا ننتظر ··· ردا قاسيا !

• وفاة شاعر أمريكي كبير

فى مطلع هذه السنة (يوم 29 جانفى 1963) توفى **روبرت فروست** الشاعر الامريكى الشهير وقد ناهز الثامنة والثمانين من العمر (ولد فى سان فرانسيسكو عام 1874) ·

عاش عصاميا ومات أبوه وهو فى العاشرة من عمره فأخذ يرتزق منذ نعومة أظافره وأشتغل اسكافيا وأجيرا فى المصانع والمزارع فى الوقت الذى كان يتابع دراسته ويوسع معلوماته ·

نشرت له مجموعة شعرية بعنوان Worth of Boston ‏(1914) ثم Mounten interval سنة 1916 وأظهر روبرت فروست وعيا ذاتيا طريفا فى كتابه New Hampshire ‏(1923) أما فى West Runig Broock ‏(1928) فقد سيطرت النزعة الرواقية ونجد فى كتابه (Further Range) الامثال **والمواعظ** وما أن بلغ الاربعين حتى نال الشهرة وأنهالت **عليه الجوائز** الشعرية وذاع صيته فى العالمين

وهذا نموذج من شعره : قصيدة بعنوان اهمال

يتركوننا هكذا لاى طريق نشاء
أن نتخذ ـ نحن كلانا ـ رغم انه ثبت
لهم خطأهم بنا
فلطالما جلسنا الى جانب الطريق
نحدق بنظرات خبيثة شاردة
محاولين ان نعرف اذا كنا
لا نستطيع أن نشعر بأننا هجرنا

• جريدة « ازفاستيا » تهاجم ايليا

يشن المحافظون ببلاد الروسيا ، فى نطاق حملتهم ضد المجددين ، حملة واسعة النطاق ضد الكاتب الروسى الشهير (ايليا اهرانبورغ) ويعتبرونه من أعظم الضحايا · فقد بدأ الرسام « لاكتونوف » بنشر مقال لاذع عنه فى جريدة (البرافدا) بتاريخ 4 جانفى ، وكتب أثره (الاسكندر قيراسيموف) فصلا فى نفس الموضوع ، والملاحظ انهما أكتفيا بنقد آثاره الفنية ولم ينعتاه الا بأنه كان « محامى المتزمتين » ·

أما بعد المقال الضافى الذى برزت بـه جريدة « ازفاستيا » فى عددها الصادر بعنوان مذكرات « اهرانبورغ » فقد تطورت هذه الحملة ضد ايليا تطورا خطيرا ، اذ احتوى المقال على كثير من الاشارات والتلميحات البعيدة ولم تعـد الانتقادات منحصرة فى الميدان الفنـى ، بل انتقلت الى الميدان الادبى • ومن المعلوم ان محرر المقال الكاتب (فلادمير اير ميلوف) يعد من أكبر نقاد الادب • عرف منذ ما قبل الحرب العالمية الاخيرة بأنه اختصاصى فى النقد « المقنع » والسهم المسموم المغشى بأعذب الالفاظ • فقد كان نقده (لاهرانبورغ) انموذجا لطريقته هذه • من ذلك انه ختم مقاله معلنا أنـه معجب « بملكة هذا الكاتب الفذ » وبتشبعه « بالقيم الاخلاقية » ••• وكل ما يؤاخذ به هو مواقفه غير الواضحة أبان عهد الافراط فى عبادة الاشخاص والقمـع •••

• كان (اهرانبورغ) أكثر اطلاعا على واقع بلاده من السوفياتى المتوسط

وعند الحديث عن « سنوات الارهاب » فى مذكراته التى نشرت فى فصل الربيع المنصرم لم يعمد (اهرانبورغ) الى الظهور بمظهر البطل • ويمكن القول أن وصفه لحالة بلده سنتى 1937 و 1938 كان تعبيرا صادقا عما كان يشعر به فى ذلك العهد جل المفكرين الذين كانوا مطلعين على بشاعة الاحداث لكن لم يكـن فى وسعهـم الا الصمت « والضغط عـلى أسنانهم » ••• وينتقد الاستاذ (ايرميلوف) بلطفه المعهود ••• و « باسم الاخلاق » موقف هذا الاديب ، فيقول : « من الواضح أن (اهرانبورغ) كان يمتاز على بقية ابناء جلدته امتيازا كبيرا • فلم يشك السوفياتى المتوسط فى أى وقت من الاوقات كامل هذه السنوات فى سداد أعمال قادته • بل كان يشعر بشىء من الامتعاظ كلما بلغت الى علمـه أخبار بعض « المخذولين » أعـداء الشعب العديدين » بل اذا داخله بعض الشك فى صحة بعض التصرفات يحاول الدفاع عن المضطهد بكل سذاجة لايمانه بأنه لم يمكن من الاعداء • فقد كافح اذن لا بالصمت فقط بل وبالفعل • فـلا يمكن القول كما يدعـى (اهرانبورغ) أن « اجتناب التفكير فى الاحوال الجارية واستيعاب كامل ملابساتها وغض الطرف عن الواقع ونسيان الماضى « هى من مميزات مشاعر السواد الاعظم من السوفياتيين خلال هذه المدة •

الحياة الادبية في السودان تغط في نوم عميق، ولذلك تحتاج الى من يعمل على ايقاظها وانعاشها بشيء من المنبهات، ويعود السبب الرئيسي إلى الفوضى المؤسفة التي خلقتها الاحزاب السودانية، التي استولت على الحكم في البلاد بعد طرد الانكليز واستقلال السودان. أما الآن فقد تولت الحكم حكومة (ثورية) بقيادة السيد الرئيس الفريق (إبراهيم عبود) ولما كانت الحكومة الحالية — وما تزال — منشغلة بتصحيح الاوضاع، مركزة كل قواها في الجوانب الاقتصادية، كالتصنيع والانشاء والتعميروما إلى ذلك. فقد انكمشت الحياة الفكرية ولم تساير هذا الزحف العمراني المترعرع.

وموجز القول أن حياتنا الادبية مذ طربة، والانتاج مخل وقليل جدا. تمر شهور بل أعوام ولايصدر أي كتاب ذو قيمة مشرّفة. وفي هذه الايام بدأت تعنى الدولة بالفنون فأنشأت أعظم مسرح بالخرطوم عاصمة السودان، وقد ارتادت هذا المسرح منذ انشائه أعظم الفرق العالمية، الى جانب الفرق الفنية المحلية، والى جانب اهتمام الدولة بالفنون والرياضة وتربية الاجسام، هذا الاهتمام الملحوظ، بدأت تظهر جمعيات أدبية، ورغم قصور النشاط الفكري لهذه الجمعيات في (المحاضرات) الا أنها تسببت في دفع الحركة الادبية خطوة الى الامامفقد بدأنا نرى دواوين للشعر وبدأنا نرى كتبا للقصة لادباء من الشباب، وهي على كل حال مجرد محاولات يمكن أن يرجى منها خير اذا تعمق أصحابها في الثقافة وصبروا على الاطلاع، واستكملوا عدتهم. والمؤلم جدا أن هؤلاء الشبان لايجدون التوجيه الصادق الذي يقوم اعوجاجهم، فساحة الادب خالية من الناقد ومن الرائد. لذلك فقد استغل بعض المهرجين خلو الميدان وبدأوا يعبثون بالحياة الادبية فلو وجد الاديب المتمكن والناقد الموجه والرائد الامين والمجلة المحترمة لظهرت في سماء العالم العربي حقيقة الادب في السودان. ذلك لان السودان أحد أقطار العروبة، إنه جزء من جسم الامة العربية، لاينفصل عنها لافي اللغة ولا في التاريخ. بل ان لغتنا واحدة وفلسفتنا واحدة وآمالنا وأحلامنا كلها واحدة، ولذلك فان على هذا القطر السوداني واجبا حتميا في المساهمة الجادة في مجالات الحضارة العربية.

معنى هذا أن هذه الدعوة الكريمة التي وجهها إلي الصديق الاديب "محمد مزالي" مدير (الفكر) الاغر لكي أوافيه بشيء من أوضاع الحياة الادبية في السودان "الشقيق" ـ كما يقول ـ دعوة لا تند عن عوامل الاشتراك الروحي والجغرافي والاقتصادي التي تجمع أبناء الامة العربية. وإني لسعيد جدا أن أقرأ مجلة (الفكر) العزيزة وان المس هذا المستوى الرائع في المجال الحضاري، وأكثر من ذلك فقد أسعدتني العبارة التي قرأتها بعدد (الفكر) ديسمبر 1962 للسيد الرئيس الحبيب بورقيبة، تلك التي يقول فيها : "على المسؤول عن هذه الامة وعن مستقبلها أن لا يقصر عنايته على ناحية دون أخرى بل لابد من أن يحرص على الحفاظ على الشخصية التونسية ومستواها الادبي وتمسكها بالقيم الانسانية التي تميز بين البشر والسوائم وأن لا يترك كفة الماديات ترجح على كفة الادبيات حتى تتوفر للمواطن حياة كريمة حقا ، فلئن كان للانسان جهاز هضمي يتطلب الغذاء فان له فكرا وروحا يتطلبان الثقافة ! "

وأنا أوكد بأن الشعب الذي يرأسه رئيس كالسيد "الحبيب بورقيبة" هذا الزعيم الانسان الذي يسخر من المادة ويهتف بالتربية الروحية والغذاء الفكري، هو الشعب المبدع الذي سوف يخلق كيانه بطفرات خارقة، سوف لايستعيرها ولا يقلدها، وسوف لا يعجز عن مسايرة الحياة الراكضة، ولن يتخلف في تقاطع ينصلب فيه تاريخه.

حديث مع « الصقر » محيى الدين محمد!

في صيف 1962 زرت الجمهورية العربية الشقيقة، ومن بين الادباء والمفكرين الذين سعدت بلقائهم "الصقر" الاديب العربي العملاق الاستاذ محيي الدين محمد، لقيته وكان ممسكا بيده عدد مجلة "الفكر" الذي يحوي البحوث التي القيت في المؤتمر الذي انعقد في (روما) لدراسة قضايا الادب العربي المعاصر، باشراف معهد الشرق الايطالي ومجلة (تمبو بريزنتي).. وفي خلال تلك الجلسة دار بيننا حديث كثير عن الادب في السودان وفي العالم العربي بصورة عامة.. قلت له لقد التقيت في رحلتك الى (روما) ممثلا للجمهورية العربية المتحدة بأدباء من شتى بلاد العالم، فكيف كان احساسك بهذا اللقاء بالنسبة للذين كانوا يعرفونك سلفا عن طريق الفكر، وما هي الطرائف التي لفتت انتباهك في ذاك المؤتمر ؟

قال : دائما يفضح اللقاء الاول كل أستار العواطف، ويحلّ الحماس محلّ الهدوء والتظاهر. والواقع. كنت دائما أرغب عن مقابلة من أحب من

الكتاب لانني – في مـظنة المشاركة – لاأحب للخلاف أن يكون جديا وبائسا، من أجل ذلك كنت عزوفا عن لقاء الادباء، بيد أنني اخطأت؛ إذ ما من شيء كان يقنعني بخطئي أكثر من التحقيق الفعلي لخوفي نفسه.. وهكذا أحببت لقاء كنت أهرب منه وأخشاه.. أذكر كلمة قيلت منذ زمن، وهي أن على الاديب أن يكون وحيدا. أن يهرب من اللقاءات، وأن يخلق قدره في حجرته الخاصة أنا أومن بذلك، وادافع عنه كلمة كلمة : لان الاديب خالق وصانع.. وإذا لم تتح له فرصة الخلق منفردا سوف يسقط بالنتيجة في فرصة الخلق العام : أي المشاركة.. والمشاركة بدون ريب أحد الاعباء الخطيرة التي تسقط بالخلق الى وحل العمومي والمبتذل.

أي مشاركة ؟!! القصد منها هو اللقاء المتكرر، وطرح القضايا وإثارة المشاكل، وبعبارة أخرى (التطهير النفسي) كما يحدث على المسرح.. إذ يتبخر القلق النفسي والحصر الذي يحمله الاديب في قلبه وفكره أولا بأول.. مع اللقاء المتكرر بأصدقائه من الكتاب.. هذا شيء خطير، ولا بد يؤثر في انتاج الكاتب الواعد، ولعلها أن تكون آفة كثير من الكتاب الذين يحملون مشاكلهم على أطراف أصابعهم، وأذكر أن رجاء النقاش صديقي العزيز أخبرني بذلك أيضا كاحدى المشاكل التي تعذبه روحيا ونفسيا في فترة يحتاج فيها الى هدوء أكثر وتعمق أكثر ومساحة نفسية وذهنية أبعد وأفسح وأغور...

التقيت بأدباء من العراق ومن سوريا ولبنان وانجلترا وفرنسا وأمريكا والمغرب العربي.. وكانوا جميعا على ثقة أن الادب العربي قد وجد نفسه، في خضم المشاكل الراهنة، وأن عليه الآن مسؤولية أن يضطلع بأعبائه وأقداره..

ستيفن سبندر أحد كبار شعراء انجلترا، أمضيت معه وقتا غير قصير في رحلة طويلة الى (التيفولي) إحدى ضواحي روما الجميلة. أمضيت الحديث عن الشعر الانكليزي والامريكي المعاصر، ولفت انتباهي أنه من المدرسة القديمة، وأن فهمه للشعر مازال يحمل الروح القوطية القديمة، والتي تثيرها الحلاوة أولا. قلت له أن قصيدة (السجين) هي أحد الاعمال التي أثرت في كقارىء أحب الشعر الانكليزي الحديث، فذكرنا أن (السجين) مرحلة من مراحل شعره، وقد تنكب عنها، ورفضها، وأنه بسبيله الى تقييم جديد للشعر الذي يكتبه الشبان الآن.. والواقع أن رايه في (الارض الخراب) غريب ويستحق المناقشة، فهو يظن أن احتشاد هذه القصيدة بالالغاز والرموز والمضامين الانترويولوجية لم يغن القصيدة، انما زادها تفتتا... وهي نفس القضية التي طرحت قبل ذلك بالنسبة لقصائد (ازرا باوند) ابتداء

من الGANTOSإلى هيو سلوين مويرلي.. فالقضية ليست عمومية الشعر. أي أن الشعر ليس لجميع الناس ؛ هذه قضية مفروغ منها، فالناس عندهم شعرهم الخاص. انهم يملكون زجلهم وأغنياتهم وخلقهم. أما مشاكل المثقف، فان المثقف هو الوحيد الذي يملك القدرة على اختراقها واظهارها.. كما حدث تماما بالنسبة لهاملت ودون كيشوت.

والتقيت بالاديب جبرا ابراهيم، وسألته عن روايته التي كتبها بالانكليزية (Hunters in a narrow street) فأجاب بأنها قد اختفت من سوق لندن، وان البحث يجري عن نسخة منها لترجمتها، وتعريفها الى القارىء العربي، والواقع أنني عجبت كيف يتأتى لكاتب عربي كبير أن يكتب أثرا باللغة الانكليزية، وما معنى ذلك.؟ وما هدفه بالضبط.؟

لقد كانت تجربة ممتازة، وغنية، وقد أحببت بعدها أن أكون على صلة بأولئك الكتاب الذين أحببتهم كتابا واحببتهم أصدقاء.

وبعد هذا الحديث الذى تطرق أيضا الى نجاح المؤتمر، وفرصة توصيل وجهة نظر الشرق الى الغرب وغير ذلك من أحاديث تناولت جوانب شخصية بحتة، سألته عما اذا تأتى له أن يلم بشيء ذي بال من انتاج الادباء السودانيين. شيء يستطيع إضافته الى حصيلة الفكر الانساني المفيد، وهل وقف بالمصادفة على آثار جيدة من أعمالهم في مجالات الفنون الكتابية.؟

فقال : لم يتسن لي أن أطلع على انتاج السودانيين إلاّ من خلال قصائد جيلي عبد الرحمان وتاج السر الحسن وحى الدين فارس، وغيرهم من الادباء السودانيين الذين قضوا في القاهرة بعضا من الوقت، وهو انتاج يحتاج بدون ريب الى صقل كثير والى ثقافة تثوى وراءه – فالموهبة موجودة وينقصها معادلها الموضوعي، وهو الكدّ الفظيع : قراءة واستيعابا وتفتّحا.. أي شاعر جيد في أوربا لم يقرأ أورتيغا إي جاسْت أو ألبيرتي أو دانو تزيو أو شعراء التروبادور ؟.. كلهم يقرأون، لانهم يعرفون أن القراءة ليست اطلاعا.. انها عملية تعادل الخلق، إذ كما قال الفلاسفة اليونانيون : لاشيء يخرج من لاشيء !! فالعبقرية الادبية هي عبقرية إضافة أي عملية(+) زائد باستمرار، وليست خلقا من لاشيء... وفي السودان وفي الشعر السوداني بالذات يوجد هذا الخلق من اللاشيء، يوجد هذا العبث : توجد الطبيعة خالية من الرجال، يوجد الرجال بمعزل عن الطبيعة، توجد الاقدار ويوجد (الشليل)(1)

(1) (الشليل) احد الالعاب الرياضية التي يلعبها الصبيان في الليالي المقمرة بالسودان.

(والعنقريب)(2) والكراكي .. إنها قضية الشعر الذي لم ينفتح على ذاته بعد الشعر الذي لم يع بعد قضية الوجود الانساني : أصلب قضية معاصرة.

وبعد : هذا هو رأي (الصقر) في الادب السوداني وهو رأي كما يرى القارىء له وزنه، فمحي الدين محمد أديب لايجامل في القضايا الادبية، مهما كانت الاحوال، ومع كل فان مشاكل السودان الفكرية، هي نفسها مشاكل البلاد المتخلفة التي تريد أن تنهض دفعة واحدة، غير أن ذلك محال. فرحلة من ألف ميل تبدأ كما يقول المثل الياباني بخطوة واحدة. أما الفكر فليس بمعزل عن الوجود الحضاري للامة، ونحن ندرك ذلك جيدا. ولذلك بالرغم من انعدام المجلة التي ينبغي أن تعطى الفكرة الصادقة عن تراثنا وعن حضارتنا فاننا نملك بعض الصحف السيارة التي تحمل صفحات أدبية فيها النقاش وفيها الغث والحضيض. بيد أن ذلك — على ضالة قدره — علامة انها بشرى.

والغرام نفسه يبدأ ببث اللواعج، يبدأ بالحركة، يبدأ بالسخيف من الامور وأمنياتنا في هذا الوقت أن نرى بلادنا العربية. وطننا العربي العملاق بأكمله يحمل أعباءه في وجه الشمس.

بورسودان — حب الله الحاج يوسف

• **كيف أصبحت قصصيا**

نشرت الزميلة « الاديب » الغراء مقالا هاما لرائد القصة العربية الاستاذ محمود تيمور تحدث فيه عما تأثر به من عوامل جعلته يلج باب القصة وينجح فيه فيصبح من أعلام القصاصين العرب ، وها نحن ننشره فى هذا الباب تتميما للفائدة راجين أن يفيد الشباب الهاوى لفن القصة ومؤرخى الادب العربى المعاصر •

الفكر

نشات فى بيت اكثر ما فيه الكتب ، فقد كان ابى المرحوم « احمد تيمور » ولوعا بجمع ما تمخضت عنه القرائح العربية فى كل فن وعلم ، ولا يكاد يدع منها مطبوعا او مخطوطا فى الشرق والغرب ، ولعله كان بالمخطوطات اشد ولعا ، وحرصه على اقتنائها ابعد مدى • ومرت الايام تبعا ، و « الخزانة التيمورية » التى تحتل الآن مكانا كريما من « دار الكتب المصرية »

---

(2) (العنقريب) سرير من خشب السدر خفيف ورخيص

تكبر ، وانا اكبر معها ، وازداد من تقديرى لها ؛ وكان أبى ينفق اطيب وقته بين حجراتها ويرصد اعظم جهده فى سبيلها ، حتى لقد خيل لى ـ وهو ينتقل بين اصونتها ورفوفها ـ انه قد غدا فيها كتابا حيا ينطق بما بين دفتيه •

ولما اشتد عودى ، واحسنت القراءة والكتابة ، الفيت ابى يهدى الى مجلدا ضخما من كتاب « الف ليلة وليلة » فى طبعة مهذبة محلاة بالتصاوير ، فما هى الا ان اقبلت على الكتاب أسبح فيما حولى من حكايات شائقة ، وكنت اجمع من يرغب فى الاستماع من عشيرة البيت ، فاعيد عليهم تلاوة ما قرات ، ولعل السر فى اعجابى بكتاب « الف ليلة وليلة » فى تلك المرحلة من حياتى هو مشابهتها للحوادث ، وهى القصص الساذجة الخرافية التى استمعنا اليها من العجائز ، يسامرننا بها فى عهد الطفولة الاولى ، فكأنما كنت بقراءة « الف ليلة ليلة » أستعيد سذاجة ذلك العهد المحبب الانيس ، وما منا الا من يشعر بحنين الى بواكير أيامه ، وهو حديث عهد بالحياة ، ولم يكن كل ما يعجبنا فى « الف ليلة وليلة » مجرد شبهها بالقصص البطولية الساذجة ، فقد راقنا منها ـ مع ذلك ـ اتساع الخيال ، وخلابة الاحداث ، وطرافة الصور ؛ والجو الشرقى الساحر الذى يمت الى نفوسنا باوثق الاسباب ، ذلك الجو الحافل بالمغامرات التى تهفو نفوسنا الى مزاولتها ، نشرك الابطال فيما يقومون به من أعمال ، وما يخوضون من اخطار ، نرتفع مع الروح الى السماوات العلى ، ثم نهبط من وادى « الثعابين » الى « مغارة الموتى » واذا نحن ننفذ منها الى «مدينة النحاس» نهيم فى صمتها المرهوب ، ثم لا نلبث ان نتوب الى الاهل والاحباب ، محملين بالذهب والفضة ، متحلين باللآلىء واليواقيت •

ولا ريب فى ان « الف ليلة وليلة » مما يذكى فى نفس القارىء موهبة التخيل ، ويمده بعناصر الخلق القصصى ، ولم يكن عبثا ان يقول « فولتير »انه قرا ذلك الكتاب مرات قبل ان يجرى قلمه بكتابة قصة ، وانه تمنى ان يفقد ذاكرته ليستطيع ان يقرا الكتاب من جديد بمثل اللذة التى قراه بها أول مرة •

ولقد اثار كتاب « الف ليلة وليلة » ميل الى قراءة امثاله ، فامدتنى مكتبة ابى بما اطمح اليه ، واذكر أنه كان فيما قرات يومئذ من كتب الاسمار ونوادر الاخباريين كتاب « اعلام بما وقع للبرامكة مع بنى العباس » وكتاب « نفحة اليمن بما يزيل الهم والشجن » وغيرهما من النظائر والاشباه •

وامتدت عينى الى غير ما تحويه خزانة ابى من روايات عصرية مترجمة ، فوجدتنى اجنح الى ايثار « القصص البوليسى » اعنى قصص الحياة والجريمة ، واذكر منها الآن روايات « نقولا كارتر »و «شارلول هولمز» و «سنكلر» ففتنت ايما فتنة بما يبديه الابطال من ذكاء وسرعة خاطر وحضور بديهة ، وقدرة بارعة على التخلص من المآزق ، وكذلك اعجبت بما تدبر القصص من مفاجآت مثيرة ، تملك على القارىء انتباهه ، وتحمله على متابعة القراءة فى شوق موصول •

وفى صيف من الاصياف ، وانا مغمور بما قرات وما وعيت من هذا اللون القصصى الغربى ، سافرنا الى الضيعة فى الريف ، والحياة هناك هادئة ، يتسع فيها وقت الفراغ ، والجو هناك مهيا للتامل والانطلاق فى آفاق الخيال ، فالفيتنى اخلو الى نفسى ، واغلق الباب دونى ، واجلس الى اوراقى واقلامى ، ادبج قصة هندية الاحداث ، بطلها ضابط انجليزى يجنى على فتاة وطنية فينبرى اهلوها يثارون لها وينتقمون ممن أساء اليها ، وجعلت للقصة عنوانا عظيما ، هو « الشرف الرفيع » وما فاتنى أن أرصع القصة ببيت المتنبى :

لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى حتى يراق على جوانبه الدم

ولما اتممت تحبير القصة هرعت بها الى ابى ، ورجوت منه ان يبعث بها الى احدى الصحف كى تنشرها باسمى ، وكانت سنى اذ ذاك لا تتجاوز الرابعة عشرة ، فالقى ابى على القصة نظرة خاطفة ، ثم ابتسم لى وربت على كتفى وقال :

حسنا كتبت ، وسانظر فيما رغبت فيه من نشر القصة ، وانقضت ايام ، وانا اترقب ظهور القصة العظيمة ، وطال ارتقابى ، حتى الهتنى عنها الشواغل ـ وبعد حين صادفت باكورتى فى الكتابة القصصية مسجاة فى زاوية من مكتب ابى ، تشكو الصون والاعراض ، فادركتنى عليها اشفاق ، وهممت ان اتناولها ، ولكن اكبارى لابى منعنى ان افعل ؛ فانتظرت حتى لقيته ، وفاتحته فى الامر ، فطلب منى ان اعاود تجربة الكتابة مرة اخرى ، لعلى ابلغ من التوفيق ما لم يتح لى فى التجربة الاولى ٠

واذا كان ابى صاحب الفضل الاول فى اذكاء موهبتى الكتابية بما يسر لى من المطالعة فى صباى الباكر ، فان الذى بعثنى على ان اكتب فى جد وتصميم هو شقيقى المرحوم «محمد تيمور» اذ وجه موهبتى توجيها استفاده من ثقافته وخبرته وذوقه ، يتزود من الادب العصرى الاوروبى بعد ان قضى فيها ثلاث سنين ، ما طاب له ان يتزود ٠

وشرع شقيقى يعالج فيما يعالج من الوان الكتابة رسم الواح قصصية اظهر ما فيها معالم حياتنا المحلية ، وامهات مشكلاتنا الاجتماعية ، وكانت كتاباته فى هذه الناحية فسحا لنطاق الادب العربى ، ونقلا له من موضوعاته التقليدية المتوارثة الى تسجيل ما يعتلج من آمال وآلام فى نفسية المجتمع العصرى ٠

ولبثت ارقب من كثب شقيقى يعرض محاولاته فى هذا الباب ، فاذا تحرك قلمى للبيان والتعبير الفيتنى اوثر ذلك اللون الذى كان يسمى حينئذ « الشعر المنثور » ، ابث كلماته ما يفطرب به وجدانى من عواطف ومشاعر وخطرات ، ولم يكن ذلك الشعر المنثور يخلو من وشائج هى فى باب القصة ادخل منها فى باب المقال ، على اننى كنت فى هذا الاتجاه متاثرا ـ لاشك ـ بما يتوهج فى افقنا الادبى لذلك العهد من لوامع ادب المهجر ، باقلام « جبران » و «الريحانى» و « نعيمة » ومن اليهم ممن زفوا الى الكتابة العربية ادبا عاطفيا انسانيا جديدا فى روحه ، يمس من القارىء شغاف قلبه ، ويثير فيه كوامن عطف ورحمة واشفاق ٠

وفى ذلك الوقت كنت استنير فى مطالعتى بهدى شقيقى ، فنصح لى فيما نصح ان اطالع «حديث عيسى بن هشام» للاديب العربى الصميم «محمد المويلحى» وقصة «زينب» للكاتب الاجتماعى المفكر «محمد حسن هيكل» فلمحت فيهما مسحة تختلف عن الادب «الرومانى» الذى كنت غارقا فيه ، مسحة تهبط بالقارىء من سماء الخيال المجنح ، حيث يعيش الناس كالملائكة فوق الضباب ، الى الارض التى تدب فيها ، فترى الناس من حولنا بشرا مثلنا على فترتهم التى خلقوا عليها ٠

و «حديث عيسى بن هشام» هو المرحلة الثانية للقصة فى الادب العربى بعد «الف ليلة وليلة » وقد نحا فيه مؤلفه منحى حديثا ، فخياله واسع ، وسرده ممتع ، وشخصياته لا تخلو من احكام فى الرسم ، واذا كان قد اقتفى اثر «المقامات» فى بعض اسلوبها ، فقد امتاز بانه صاحب المحاولة الناجحة المبكرة لتمصير الادب ، وصبغة باللون المحلى ، مع سموه عن الواقعية الساذجة ٠

اما «زينب» فهو اسبق عمل ادبى فى العصر الحديث ، مكتمل العناصر الاساسية للقصص الفنى ولا ريب فى ان هذه القصة كانت مظهرا لنزعة التجديد ، ووثبة الخلق ، فيها انتفاضة وجدانية وطنية ، وفيها معالجة لتصوير الحياة فى رقعة كبيرة من هذا الوطن ، هى الريف ،

فتوجهت فى القصة مشاعر وعواطف وتعاقبت صور محلية ، وتجلت شخصيات شعبية اريد بها جميعا ان تحقق غرضها هفت اليه نفوس الداعين والى تجديد الادب فى مستهل القرن الذى نعيش فيه ، ذلك هو الغرض هو انشاء ادب قومى السمات ، قومى الاحداث ، قومى الروح ؛ يتاكد به طابع القومية فى التعبير والتصوير ·

ولم تقف مطالعتى عند الادب العربى قديمه وحديثه ، ما الف فيه وما ترجم اليه ، فقد كانت معرفتى بالانقليزية والفرنسية قد نمت نموا يمكننى من ان اقرأ الادب الغربى فى هاتين اللغتين ، وارشدنى شقيقى الى قراءة ما كتب «موباسان» الفرنسى و «تشيخوف» الروسى فى مجموعتهما القصصية ، فقرات لهما ، او قل عببت من اقاصيصهما عبا ، فاما «موباسان» فقد راقتنى منه قدرة على تصوير قطاعات كثيرة من الحياة مختلفة الالوان ، فيها بساطة ، وفيها صدق ، وفيها إمتلاك لناحية الصياغة القصصية ، وفيها مهارة جمع الاطراف التى يبنى عليها العمل القصصى من احداث وشخصيات ·

واما «تشيخوف» فقد راعنى منه أنه يصور مآسى الحياة فى الواح فنية ناطقة ، لعلها لا تستكمل صياغتها القصصية بالمعنى الشائع للقصة المحبوكة الاطراف ، ولكنها بضعة من الحياة ، فيها مرارة ، وفيها خفوق ، ومع ما يبدو من بساطة الظاهر فى هذه الالواح ، فانها تنطوى على معان عميقة ، وتحليل للنفس البشرية عجيب ·

ويبدو لى ان تاثرى بما قرات من أدب اللغتين الفرنسية والانجليزية قد اغضب على شيطان الشعر المنثور ، فاذا هو يتخلى عنى ، شكر الله له ما صنع ، ان كان للانسان ان يطلب الشكر للشيطان ·

وجرى قلمى بقصة قصيرة هى «الشيخ جمعة» وعلى اثرها كتبت قصة اخرى «يحفظ بشباك البريد» والحق ان قصة «الشيخ جمعة» نصيبها من التصوير الوصفى اكبر من التاليف القصصى فضلا عن ان الواقعية فيها ، تكاد تكون هى العمل كله ، والقصة الفنية انما تكون مزاجا من واقع وخيال · على ان «الشيخ جمعة» لقى من القبول والاستحسان ما لم اتوقع ، اذ مس الموضوع ناحية انسانية فى تصوير ذلك الشيخ الفطرى فى نقاء سريرته · وفى فلسفته الساذجة التى تستعلى على مشكلات الحياة ، وكثيرا ما تتعقد المشكلات فى وجه الانسان ، فتهفو نفسه إلى مثل تلك الفلسفة البدائية المريحة التى هى كالمرفا تجنح اليه السفينة حين يكتنفها اعصار ، او يعبث بها تيار ولكن القصة التى اعتبرها مكتملة المزاج الواقعى الخيالى ـ اعنى مكتملة لعنصرى القصصى الفنى ـ هى قصة (يحفظ بشباك البريد) وموجزها سخرية خفيفة بادعياء المغامرات وبخاصة فى فورة الشباب ، وهذه القصة اتيح لها ان تترجم بعد ذلك بسنين الى الانجليزية فى كتاب يضم نخبة من القصص فى مختلف البلاد ، ولعلها كانت طليعة ما ترجم من الادب المصرى الى لغة اجنبية ، وربما كان السر فى اختيارها لتمثيل ادبنا المصرى القصصى وقتئذ انها كانت موفورة الحظ من اللون المحلى الذى يجذب انظار القارىء الاجنبى ·

وفجعنى القدر فى شقيقى « محمد تيمور » سنة 1921 وهو من شبابه فى عنفوان ، وحوله هالة من الامانى تتالق ، ولا نعرف مصيرها من بعده ، اتخبو بموته ، ام تتاح لها حياة وبقاء ؟

حقا لقد شعرت على اثر ارتحال شقيقى الى دار الخلود ، بانهيار ما كان يطمح اليه من نماء النبتة الجديدة ، نبتة القصة فى ادبنا القومى الحديث ، تلك النبتة التى رواها بدمه ، وارتقب لها ان تزدهر كل الازدهار ·

ورايتنى اضعف من ان اخلف شقيقى الراحل على ما كان يبشر به ، ويسعى اليه ، فاخلدت الى سكينة اليأس ، بعض حين ، ولكن عملية الحياة جعلت تدفع بى طريقها الممدود ، ولا يعنيها من الامر الا ان تستكمل دوراتها ، ولا تبالى من انقطعت به الطريق ·· فاخذت جراح الفجيعة تندمل رويدا ، وان كانت الذكرى باقية بقاء الروح فى الجسد الحى .

ووجدتنى انشط لبعض العمل ، فلملمت ما تشعث من قواى ، وخطوت على الدرب فى تؤدة وحذر ، انفض عن كتفى غبار الياس ، واقصى شبح الاخفاق ، معولا على نفسى مهتديا بهدى شقيقى الراحل ، فكنت اكتب اقاصيص مندفعا بباعث من واعيتى الباطنة الى استكمال ما كانت نفس شقيقى تصبو الى تحقيقه ، لو مد الله فى عمره ، وكنت احس انى بهذا النشاط اكرم

روح شقيقي ، واقرنها واجب التحية والاجلال ٠

وما ان اقبل عام 1925 حتى كان قد تجمع لدى ما يصح اخراجه في مجموعة قصصية ، فسارعت إلى طبع كتابي الاول «الشيخ جمعة وقصص اخرى» واتبعته بكتابي الثاني « عم متولى » ونفسي راضية عما اصنع وضميري مستريح الى انى احاول ان استبقي من شقيقي الراحل جوهر حياته ، اعنى ما كان يهدف اليه ، ويهتف به من ارساء دعائم الفن القصصي العصري في الادب العربي ٠

والزم نفسي التجرد للكتابة ، لا انتهى من مجموعة حتى اكون قد نسجت الخيوط لمجموعة اخرى ، وتراءت لي مشاهد الحياة ، وشخصيات الناس ، واحداث المجتمع ؛ ولوامع الافكار ٠ كانما هي بضاعة قابلة للعرض في مخيلتي الفنية ، داخل الاطار القصصي ، او كانما هي الواح محشودة امام عيني ، وعلى ان انتقى ، منها ما انقله في حروف وكلمات ٠

وكان من الطريف أن يتحدث اصدقائي عنى بأنى اجالس منهم من اجالس ، واتحدث الى من اتحدث ، فلا يلبثون أن يروا سماتهم وقسماتهم وبعض خفايا نفوسهم فيما انشر من اقاصيص وكانى اذيع لهم اسرارهم او اصور منهم زوايا كانوا يصونونها عن العيون ٠

ولم اكن ابالي هذا من الاصدقاء الظرفاء ، فقد شغلني ان اجلو مرآة للحياة من حولي ، ولمن اعايش من خلق الله ٠ فمن راى في تلك المرآة وجهه فلا تثريب على ، بل لعل ذلك مما يزيدني ايمانا وثقة بانى لم اكذب فيما وصفت ، ولم اخفق فيما صورت ، ولست اخفى ان هذه الغبطة والزهو كانت تعروني حين اعلم ان بعض من اصاحب عرف نفسه في معرض الشخصيات التي اضمنها ما اكتب من اقاصيص ٠

وفي خلال اربعين سنة اخرجت من كتبي القصصية جملة تبلغ عدد تلك السنين ، منها ما ترجم الى لغات شرقية ، ومنها ما ترجم الى لغات غربية ٠

ولقد كتبت القصة قصيرة ومطولة ، وكتبتها للقراءة وللمسرح ، واستلهمت في كتابتها روح العصر مرة ، واحداث التاريخ مرة ، وطوفت بالمدينة احيانا ، وبالبادية اخرى ؛ ومشيت في دروب الواقع خطوات ، وخلقت في آفاق الخيال شاوا بعد شاو ، واستجبت لهواتف شتى من مسرات واحزان ، وجلوت من سرائر النفوس ما استطعت ان اجلو ، وعالجت من مشكلات الحياة ما تيسر لي ان اعالج ٠٠ وكنت فيما اكتب انتقل من مرحلة الى مرحلة ، ومن عهد الى عهد ، لا اجمد عند مذهب ادبي بعينه ، ولا اقنع بلون من الوان الاداء الفني استمسك به لا اعدوه ، يحدوني في ذلك كله ما اكتسبت من خبرة بالوجود ، ومن تجربة في المجتمع ، ومن دؤوب على الاطلاع في مختلف فروع الثقافة ، ومن رحلات في الشرق والغرب ، ولا انسى ما افدت من سخط الناس على ما اكتب طورا ، ورضاهم عنه طورا ، ولعلّ افدت من النقد والملاحظة اضعاف ما افدت من الثناء والاطراء .

وانا الآن في مرحلة اعالج فيها كتابة القصة ، واوازن بين المرحلة الاولى ، مرحلة قصة «يحفظ بشباك البريد» التي كتبتها منذ اربعين عاما ، مقتصرا فيها على تصوير شخصية شاب من ادعياء المغامرات الغرامية ، وبين المرحلة الحاضرة التي اعالج القصة فيها مستنفدا ما كسبت وما افدت من طول المرانة ، ومعاناة الدرس ، ومن فهم لاصول القصة الفنية ؛ وضرورة استيفاء حظها من التحليل النفسي ، ومن التعمق في النزوع الانساني الذي يمت الى غرائز ثابتة تمثل كفاح البشر في معركة الحياة على مسرح الوجود .

في هذه المرحلة الحاضرة التي استدبر بها تلك المراحل السالفة ، انصت الى من يسالني :

ـ كيف اصبحت قصصيا ؟

فاراني افكر في السؤال مليا ، ولا املك الا ان يكون جوابي هو ان اسال نفسي في صدق واخـــــلاص :

ـ هل اصبحت قصصيا حقا ؟ !

محمود تيمور